الفصل الرابع

إمبراطورية المغول العظمى

البرابرة العالميون

مثلما وضع الله أصابع مختلفة الحجم في اليد، فقد مهّد طرقاً مختلفة لبني البشر.

– مونجك خان، سيركا، ١٢٥٠

قبضات جنكيز خان والمنحدرون من صلبه هزت العالم: السلاطين أطيح بهم، والخلفاء سقطوا، وارتعش القياصرة من على عروشهم.

– إدوارد غيبون، ١٧٧٦

منذ ما يقرب من سبعة قرون ونصف، كانت مدينة الخيام الملكية التي تدعى "كاراكورم" منصوبة على أحد السهول المرتفعة في السهوب المنغولية، حيث لا توجد اليوم سوى الأعشاب البرية، وبعض رعاة الماشية، وقافلة من عمال المناجم الكنديين تمر عبرها بين الحين والآخر. من بين تلك اليارتات المقززة – وهي عبارة عن خيام بيضاء دائرية الشكل كان المغول يطلقون عليها اسم الجير – خرج الخانات المغوليون الأميون ليحكموا إمبراطورية أكبر مساحة بكثير من أي أراضٍ فتحها الرومان طيلة تاريخهم. لم يكن في متناول أيدي أولئك المغول الرحل أي نوع من أنواع العلوم، أو الهندسة، أو أي لغة مكتوبة خاصة بهم. كما لم تكن لديهم أي زراعة، حتى إنهم لم

obeikandl.com

يكونوا يعرفون تحضير الخبز. مع ذلك، حكموا نصف العالم المعروف آنذاك، بما في ذلك أكثر المدن روعة في ذلك الزمان: مثل بغداد وبلغراد وبخارى وكييف وموسكو ودمشق وسمرقند[١].

في سنة ١١٦٢، وقبل أن تبنى مدينة كاراكورم بسبعين سنة، وُلِدَ صبي اسمه تيموجين في منطقة جبلية يسودها البؤس، وتقع في بقعة جرداء من السهوب. كان المغول في ذلك الحين مجموعات متناثرة من القبائل والعشائر تربط بينها أواصر القربى، إلا أن رجال تلك القبائل كانوا غارقين في دوامة من الصراع المرير المتمثل في غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضاً، وما كان يتلو ذلك من عمليات انتقامية، حيث كان الرجال يقتلون، والنساء يخطفن، والحيوانات تسرق. وكانت والدة تيموجين نفسها، واسمها هويلون، «سبيّاً»: فقد قام والد تيموجين باختطافها بعد وقت قصير من زواجها من أحد رجال قبيلة منافسة. عندما بلغ تيموجين سن التاسعة، قُتِلَ والده، ولكن ليس قبل أن يتم تزويج تيموجين من فتاة تدعى بورتي. بعد ذلك بمدة وجيزة، تخلت العشيرة عن هويلون وأطفالها الجياع الخمسة. ومع حلول الشتاء القارص، استطاعت تلك العائلة البقاء على قيد الحياة لأنها كانت تقتات على التوت البري وجذور النباتات، وترتدي «جلود الكلاب والفئران». عند بلوغه سن السادسة عشرة، قام تيموجين بقتل أخيه غير الشقيق، وكان ذلك الفعل يُعد من المحرمات في أعراف المغول، ولذا فقد أصبح تيموجين فاراً من وجه العدالة[٢].

كيف تمكن هذا المنبوذ الذي أصبح اسمه جنكيز خان، من توحيد القبائل المتصارعة في تلك السهوب، واحتلال أراضٍ وإخضاع شعوبٍ أكثر من أي رجل آخر في التاريخ؟ وكيف تمكن المغول الذين لم تكن لديهم أي تكنولوجيا راقية خاصة بهم، من تصميم آلات حصار هائلة - راجمات ومنجنيقات ومتفجرات وأبراج متنقلة - ساعدتهم في القرون الوسطى على اقتحام مدن ، ذات أسوار عظيمة في الصين وبلاد فارس وأوروبا الشرقية؟ وكيف استطاعت مجموعة قليلة العدد نسبياً من البدو الرحل الاستمرار في حكم إمبراطورية امتدت من بوابات فيينا إلى بحر اليابان مدة مئة وخمسين سنة؟

كان جنكيز خان من دون أدنى شك، مخططاً عسكرياً موهوباً. كما كان المغول عُدَماء الرحمة في المعارك. كانوا يصبون الفضة المذابة في أعين وآذان أعدائهم. وكانوا يقتلون النساء الخائنات بواسطة خياطة فروجهن. وقد نسب إلى جنكيز خان أنه قال إن السعادة تكمن في «سحق أعدائك، ورؤيتهم وهم يرتمون على قدميك – وأن تستولي على خيولهم وممتلكاتهم، وتسمع عويل نسائهم. تلك هي المتعة» [٢].

في الوقت نفسه، اتبع جنكيز خان سياسات تتميز بالتسامح حتى من وجهة المعايير الحديثة؛ وبالتأكيد، مقارنة مع الحكام المعاصرين. ففي الوقت الذي كانت أوروبا تحرق الهراطقة على الخوازيق، أصدر جنكيز خان أمراً ضمن فيه الحرية الدينية للجميع. آمن بفكرة التنوع العرقي، وحطم الحواجز التي تفصل بين القبائل، والتي كانت فيما مضى سبباً في الانقسامات بين شعوب السهوب، كما اجتذب إلى خدمته أكثر الأفراد من الشعوب التي استعمرها موهبة ونفعاً. اتبع أحفاده مونجك وهولاكو وكوبيلاي بعد جيلَيْن، وعلى مدى أوسع، الإستراتيجية نفسها؛ واستطاعوا بذلك بناء أكبر إمبراطورية برية مستمرة على وجه الأرض لم يشهد التاريخ لها مثيلاً. فبعيداً عن تعطشهم للدماء، مهّدَ التسامح الديني والعرقي للمغول الطريق لتحقيق السيطرة على العالم والمحافظة عليها.

فتح السهوب

ربما كان الراهب جيوفاني دي بلانو كابريني أول أوروبي تطأ قدماه السهول المغولية. ففي سنة ١٢٤٦، وبعد قضاء سنة لعبور أوروبا على ظهر حصانه، حطت رحال الراهب العجوز في مدينة كاراكورم، عاصمة المغول الإمبراطورية. كان كابريني في واقع الأمر يعمل جاسوساً لحساب البابا إينوسينت الرابع الذي قام بتكليف الراهب بجمع أكبر كم من المعلومات حول المغول الذين أرهبوا أوروبا وفتحوا معظم بلدانها. وصف الراهب غير المكترث بما كان يجري في سهوب منطقة غوبي على الشكل التالي:

لا توجد هنا بلدات أو مدن، بل أراض رملية قاحلة أينما أجلت بصرك؛ لا تشكل المناطق الخصبة سوى واحد في المئة من مساحة تلك الأراضي، والتي تروى بمياه الأنهار التي تعتبر نادرة الوجود ... تكاد هذه الأراضي تكون خالية من الأشجار بالرغم من أنها صالحة لرعي قطعان الماشية. حتى الإمبراطور والأمراء وجميع من حولهم يتدفؤون ويطبخون طعامهم على نار وقودها روث الخيل والأبقار. ... المناخ هنا غير مستقر البتة، إذ تهب عواصف شديدة في منتصف الصيف، كما ترعد السماء وتبرق مسببة مقتل أعداد كثيرة من الناس، حتى أن الثلج يهطل هنا بغزارة في الصيف، وتهب عواصف شديدة البرودة والقوة بحيث يجد الناس صعوبة كبيرة في امتطاء خيولهم. كان علينا أن نلقي بأنفسنا إلى الأرض عندما هبت واحدة من تلك العواصف التي حجب غبارها الكثيف عنا الرؤية. غالباً ما تتعرض هذه المنطقة إلى زخات شديدة من البَرَد، وإلى موجات مفاجئة من الحرارة التي لا تطاق، تعقبها موجات أخرى من البرودة الشديدة [٤].

كانت هذه الأحوال الجغرافية هي نفسها التي كان على الفتى تيموجين الذي كان يبلغ السادسة عشرة من عمره سنة ١١٧٨ مواجهتها. أما الأحوال الاجتماعية فقد كانت مختلفة كلياً وجزئياً. إذ لم تكن هناك حينئذ إمبراطورية مغولية أو مدينة أو أمة مغولية سنة ١١٧٨. كانت السهوب مأهولة بعشرات من القبائل والعشائر التي تصل بينها روابط قربى غامضة، منغمسة بحروب لا تنتهي فيما بينها. كانت أكثر القبائل قرباً من المغول التتار والخيطانيين والمنخوسيين من جهة الشرق، والقبائل التركية في آسيا الوسطى من جهة الغرب. إلا أنه بينما استطاع التتار وقبائل آسيا الوسطى تعزيز مواقعهم في كونفدراليات قوية، فقد انقسم المغول على أنفسهم وتحولوا إلى عصابات متنافسة مبعثرة يقود كل واحدة منها زعماء محليون أو خانات [٥].

كان المغول يحتلون أسفل الهرم بين شعوب تلك السهوب، وكان يُنظر إليهم كمجموعات من «جامعي القمامة يتنافسون مع الذئاب من أجل اصطياد الحيوانات الصغيرة». مع ذلك، ظهرت بعض العشائر من بين قبائل المغول كعشيرة التيخويديين على سبيل المثال، تزعم أن نسبها «أعلى مستوى» من العشائر الأخرى، وفرضت من

ثم سطوتها على العشائر الأخرى بالقوة. وضع تيموجين في مرحلة لاحقة من حياته حداً لهذا التسلسل الهرمي المبني على أساس رابط الدم بين سكان السهوب، حيث أبدل النظام المبني على أواصر القربى بنظام اجتماعي جديد مبني على رصيد المصداقية التي يتمتع بها الفرد، وعلى الولاء الشخصي. لكن تيموجين في سن السادسة عشرة كان نكرة، ولم تكن له أي قيمة؛ إضافة إلى ذلك، أراد التيخويديون معاقبته لقيامه بقتل أخيه غير الشقيق في منطقتهم[٦].

عند هذه النقطة بالتحديد تصبح السجلات التاريخية ضبابية. يبدو أن التيخويديين استطاعوا إلقاء القبض على تيموجين الذي عومل كعبد مدة من الزمن قبل أن ينجح في الهروب. عاد تيموجين بعد ذلك بمدة وجيزة إلى العشيرة التي تزوج منها حيث زفت إليه عروسه بورتي. وبالرغم من أن والد بورتي كان على علم بالمشكلات التي يواجهها تيموجين مع التيخويديين، إلا أنه احترم الوعد الذي قطعه على نفسه قبل سبع سنوات. تصور أحد كتاب السير الذاتية أن تيموجين كانت له في سن السادسة عشرة «جاذبية أو سحراً من نوع خاص» استطاع بواسطته التأثير فيمن حوله. على أي حال، قام والد بورتي بتقديم هدية زفاف لتيموجين، وكانت تلك الهدية معطفاً أسود من فراء حيوان السمور، وكان هذا النوع من أفخر أنواع الفراء في أنحاء السهوب كلها. وكانت تلك الهدية بمثابة الخطوة الأولى التي قادت تيموجين نحو السلطة والنفوذ.

بدلاً من أن يحتفظ بالمعطف لنفسه، قام تيموجين بتقديمه هدية لأحد كبار السن من ذوي النفوذ، يدعى تورغيل، ويعرف أيضاً باسم أونغ خان الذي كان زعيماً لكونفدرالية قبائلية قوية بقيادة قبيلة الكيريد. ونظراً إلى أن الكيريديين الذين ينتمون إلى أصول تركية، كانت لهم روابط تجارية مع آسيا الوسطى، فقد كانت ثقافتهم أرقى بكثير من الثقافة المغولية. كان الكيريديون أيضاً يعتنقون فرعاً من الديانة المسيحية النيسطورية التي كانت سائدة في منطقة السهوب، وكانوا في خيامهم يعبدون المسيح الشاماني الذي كان يشفي المرضى، والذي انتصر على

الموت. الأهم من ذلك كله بالنسبة إلى تيموجين، أن الكيريديين كانوا متحدين، وكثيري العدد، وكانوا يسيطرون على مساحات شاسعة من سهوب منطقة غوبي. كان تقديم تيموجين هدية زفافه إلى أونغ خان إشارة رمزية منه اعتبر فيها هذا الأخير بمثابة أب له، وكانت هذه اللفتة عبارة عن عقد تحالف كان هو الأول في سلسلة من التحالفات الكثيرة والقوية التي أقامها لاحقاً [٧].

أثبت هذا التحالف نجاعته على امتداد الخمس والعشرين سنة اللاحقة حيث ارتقى تيموجين سلم السلطة والنفوذ في منطقة السهوب بأسرها. قبل ذلك، ساعد الكيريديون تيموجين في إنقاذ زوجته الجديدة التي اختطفها مغيرون من قبيلة الميركيد بعد فترة وجيزة من زواجهما. في غضون ذلك، استطاع تيموجين أن يؤسس لنفسه مجموعة أتباع قليلة العديد لكنها قوية النفوذ. بدأ تيموجين بمساعدة من رجال أونغ خان بالسيطرة على قبائل صغيرة مختلفة في منطقة السهوب بما في ذلك التيخويديين، وهي العشيرة التي نبذت تيموجين وعائلته التي كانت تتضور جوعاً عندما كان صبياً يافعاً. كان تيموجين يمارس نفس السياسة بعد كل انتصار يحرزه. فقد كان يقوم بقتل زعماء القبيلة المهزومة بمن فيهم معظم ذكورها من الأرستقراطيين، ثم يقوم بضم ما تبقى من القبيلة إلى أتباعه - ليس كعبيد بل كأعضاء متساوين.

استطاع تيموجين وأونغ خان أيضاً من خلال تحالفهما هزيمة التتار الذين كانوا يشكلون كونفيدرالية قبائلية أكثر ثراء بكثير من قبيلة الكيريديين. قيل إن تيموجين اعترته الدهشة جراء ما اكتشفه من ثراء التتار الفاحش - أسرّة من الفضة، وأغطية مرصعة باللآلئ، وثياب من الساتان الموشى بالذهب للبالغين والأطفال على حد سواء - الذي لم يرَ المغول له مثيلاً في حياتهم. قام تيموجين في معرض تحطيمه للحواجز بين قبائل السهوب بتشجيع الزواج بين أفراد تلك القبائل، حيث قام شخصياً بالزواج من شقيقتين من التتار. كما طلب إلى والدته أن تتبنى بشكل رمزي أطفالاً يتامى من القبائل المهزومة. وهكذا، فقد كان من بين إخوة تيموجين ميركيديون وتيخويديون وجوركينيون وتتار، إلخ [٨].

أصبح تيموجين الآن قائداً لجيش خليط عرقياً وقبائلياً لا يستهان به يتجاوز عدد أفراده ثمانين ألفاً من الجنود بالرغم من أنه كان ما يزال تحت إمرة أونغ خان. أمر تيموجين سنة ١٢٠٣ بإجراء إصلاحات كان لها أن تؤدي إلى حدوث تغيير جذري لمنطقة سهوب آسيا الوسطى. كانت شعوب تلك السهوب على امتداد أجيال تشدها أواصر قربى ذكورية. فكلما كان اثنان من الذكور تربط بينهما علاقة قرابة مباشرة، كان من المفترض أن يبديا ولاء أكبر لبعضهما بعضاً. أعاد تيموجين تنظيم الجيش المغولي في معرض محاولته إلغاء الانقسامات التقليدية ذات الأساس العشائري والعائلي، والتي أدت فيما مضى إلى تجزئة منطقة السهوب. قام بتقسيم محاربيه إلى فرق كل واحدة منها تتكون من عشرة محاربين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وقد صدرت إليهم الأوامر بأن يعيشوا مع بعضهم بعضاً ويدافع الواحد منهم عن الآخر كما لو كان أخاً له بغض النظر عن أصولهم القبائلية. كان الأكبر من بينهم سناً يعين قائداً للفرقة، إلا إذا اتخذت المجموعة قراراً مخالفاً. كانت كل عشر فرق تشكل سرية، وكل عشر سرايا تشكل كتيبة، وكل عشر كتائب تشكل ما يسمى «التيومين» وهو عبارة عن جيش قوامه عشرة آلاف جندي يختار قائدَه تيموجين شخصياً. هذا النظام العشري المتعدد قبائلياً وعرقياً لم يشمل الجيش وحسب، بل المجتمع المغولي بأسره [٩].

وبينما اعتاد زعماء السهوب التقليديين إحاطة أنفسهم بأقاربهم المباشرين، اختار تيموجين مساعديه ومستشاريه على أساس الكفاءة والموهبة والموالاة التي كان عليهم إثباتها. فقد كان أقرب الموثوقين وأعلى الجنرالات رتبة – مثل بوركو الذي كان قائداً لأحد الجيوش في ألطاي، وسوبودي الذي فتح في نهاية المطاف كلاً من بولندا وهنغاريا – لا يمتون بصلة قرابة مطلقاً لتيموجين. على العكس من ذلك، لم تكن لدى تيموجين أي مشكلة في إبعاد من يمتون إليه برباط «الدم» عن دائرته الضيقة إذا لم تكن له ثقة بهم. في الواقع، لم يعين تيموجين أياً من أعمامه أو أخواله أو إخوته أو أبناء إخوته في أي منصب عسكري قيادي، ضارباً عرض الحائط بالتقاليد

المغولية. ونظراً لأن تيموجين شدد على أهمية الكفاءة بدلاً من القرابة، فقد أضحى بعض رعاة الجمال ورعاة البقر جنرالات في جيوشه. وهكذا فقد ارتقى العديد من التتار سلم الشهرة في الإمبراطورية المغولية لدرجة أن عبارتيّ «التتار» و«المغول» أضحتا متلازمتين في أغلب الأحيان.

كانت المعايير التي اتبعها تيموجين في اختيار جنرالاته تعكس سداداً في الرأي وذكاء شديديْن. فهو لم يثمّن عالياً الشجاعة وحسب، بل الدهاء والجَلَدَ أيضاً. فلم يكن يسمح للشجعان الذين تعوزهم الحكمة بقيادة الآخرين، بل كان يطلب إليهم بدلاً من ذلك مهمة حماية المعدات العسكرية، وهي مهمة لا يستهان بها. قيل إن تيموجين رفض ترقية أحد المحاربين معللاً ذلك بالحجة التالية:

> ليس هناك من هو أشجع من يسوتاي؛ أو أكثر موهبة منه. ولكن، نظراً إلى أن مسير المسافات الطويلة لا ينهكه، كونه لا يشعر بالجوع أو بالظمأ، فإنه يعتقد أن ضباطه وجنوده لا يعانون من ذلك. وبالتالي، فهو لا يصلح أن يكون في مراكز القيادة العليا. يجب على الجنرال القائد أن يفكر بالجوع والظمأ كي يكون بإمكانه تفهم معاناة أولئك الذين يعملون بإمرته، ويجب عليه أن يحافظ على قوة رجاله وخيولهم [١٠].

سنة ١٢٠٣، قام تيموجين بخطوة فيها الكثير من الجرأة ذلك أنه طلب يد ابنة أونغ خان للزواج من ابنه البكر جوشي. كان أونغ خان وتيموجين حليفين منذ أكثر من عقدين من الزمن. قام تيموجين تحت إمرة أونغ خان باستعمار معظم أراضي السهوب باستثناء كونفيدرالية النيمانيين القوية في الغرب. مع ذلك، وبالرغم من الشهرة التي كان تيموجين يتمتع بها كأعظم قائد عسكري في منطقة السهوب كلها، كان أونغ خان يرى أن تيموجين وعائلته ليست بالمستوى الاجتماعي الذي يؤهلها كي تصاهر عائلة كيريدية أرستقراطية. بالإضافة إلى ذلك، كان أونغ خان واقعاً تحت سيطرة خصوم تيموجين ومنافسيه الذين كانوا يغارون من تأثير هذا الأخير على الحاكم الكيريدي العجوز. على أي حال، كانت ردة فعل أونغ خان على هذا الطلب، كما أوردها ماركو باولو بعد مرور قرن على الحادثة على الشكل الآتي: «ألا يخجل من

نفسه وهو يطلب يد ابنتي للزواج؟ ألا يعلم أنه في نهاية المطاف خادمي وعبدي؟ عد إليه وأبلغه أنني أفضل أن ألقي بابنتي إلى النار على أن أوافق على تزويجها لابنه.»

لكنه أرسل إلى تيموجين رسالة أخرى بعد فترة وجيزة يبلغه فيها أنه غير رأيه، وأنه وافق على طلب الزواج ذاك، في المحصلة. علم تيموجين وهو في الطريق إلى حيث سيقام حفل الزفاف أن ذلك الحفل ما هو إلا فخ نصب له، وأن أونغ خان أمر جيشه بالإغارة على معسكر تيموجين وذبحه في خيمته. ونظراً لأن جيش أونغ خان كان يفوق بشكل كبير عدد المرافقين لتيموجين، أمر هذا الأخير محاربيه بالتفرق بينما هرب هو وأقرب مساعديه طلباً للنجاة حيث وصلوا في نهاية المطاف إلى سواحل بحيرة بالجونا. ما حدث بعد ذلك تحول إلى ما يشبه الأسطورة في التاريخ المغولي.

ظهر في المكان حصان بري من غامض علم الله. رأى الرجال الذين كان الجوع قد أخذ منهم كل مأخذ، في ذلك علامة من علامات العناية الإلهية. قاموا بذبح الحيوان وسلخ جلده. ودرجاً على الأساليب القديمة في الطهي،

> قاموا بتقطيع اللحم وصنعوا من جلد الحصان كيساً كبيراً وضعوا فيه اللحم وبعض الماء. جمعوا بعد ذلك كمية من الروث الجاف وأوقدوا منه ناراً؛ إلا أنه لم يكن بمقدورهم وضع الكيس مباشرة على النار. بدلاً من ذلك، قاموا بتسخين بعض الحجارة الكبيرة في النار إلى أن بدأت تتوهج بفعل الحرارة، ثم ألقوا تلك الحجارة المتوهجة في خليط اللحم والماء... بعد بضع ساعات، بدأ هؤلاء الرجال الجياع بالتهام لحم الحصان المسلوق.

أقسم هؤلاء الرفاق بعد ذلك يمين الولاء الأبدي لبعضهم بعضاً، كما أقسموا على مبايعة تيموجين زعيماً لهم. ما يثير الدهشة أن هؤلاء الرجال الذين كان لا يتجاوز تعدادهم العشرين كانوا ينحدرون من تسع من القبائل المختلفة، وكان من بينهم بوذيون ومسيحيون ومسلمون بالإضافة إلى بعض أتباع معتقد حيوية المادة مثل تيموجين نفسه الذي كان يعبد السماء الزرقاء الأبدية والإله الجبل المسمى

"برخان خلدون". أصبح هذا القسم الأخوي الذي أقسمه رجال متعددو الأعراق والمعتقدات رمزاً لشكل المجتمع الجديد الذي سيقيمه في وقت قريب تيموجين الذي سيصبح اسمه جنكيز خان [١١].

ولكن كان على تيموجين أولاً أن يهزم أونغ خان. بث تيموجين رسالة من موقعه بالقرب من بحيرة بالجونا إلى جميع مناطق السهوب تتضمن خطته في شن هجوم معاكس. خلال أيام قليلة، أعاد جيشه تنظيم نفسه في وحدات من عشر جنود وأخرى من مئات منهم في جميع أنحاء السهوب. امتطت مجموعة من المحاربين جيادها وبدأت بتحضير مجموعات من الخيول المليئة بالحيوية في مناطق تجمع حساسة. بعدها، قام تيموجين وجيشه الذي أعيد تنظيمه بالتوجه نحو المناطق التي يسيطر عليها أونغ خان.

في النهاية، كان تيموجين هو من نصب كميناً للقادة الكيريديين. أغار تيموجين ورجاله على الكيريديين الذين كانوا يحتفلون - وقد أمسك الثمل بتلابيب عقولهم - بانتصارهم عليه. بعد ثلاثة أيام من المعارك الطاحنة، تحقق لتيموجين النصر. هرب أونغ خان وحاشيته في الوقت الذي انضمت غالبية قوات أونغ خان إلى جيش تيموجين. قبل تيموجين تماشياً مع سياسته المعهودة، انضمام أتباع أونغ خان إلى معسكره من جديد طالما أنهم لم يقوموا بأي أعمال خيانة ضد قائدهم السابق. بعد قيامه بضم القوات الكيريدية إلى جيشه، تابع تيموجين فتوحاته حيث قام بإخضاع النيمانيين الذين كانوا يشكلون آخر كونفيدرالية عظيمة في السهوب لم تكن قد خضعت لسيطرته بعد. بحلول سنة ١٢٠٤، استطاع تيموجين هزيمة جميع القبائل التي تقطن في تلك السهوب؛ وأصبحت منطقة نفوذه تمتد من صحراء غوبي إلى منشوريا، إلى سهول المنطقة القطبية الجرداء. لم تكن أغلب مساحات تلك المنطقة مأهولة بشكل كثيف سكانياً؛ إذ كان يوجد فيها حوالي عشرين مليون رأس من الماشية تقريباً، بينما لم يكن يقطن فيها أكثر من مليون نسمة.

قام تيموجين سنة ١٢٠٦، في محاولة منه لإضفاء صفة الشرعية على حكمه

بالدعوة إلى عقد اجتماع ضخم لممثلين من كافة أنحاء السهوب. أثناء احتفال في الهواء الطلق استمر عدة أيام تناوبت فيها المهابة الدينية مع الاحتفالات الصاخبة والمباريات الرياضية وعزف الموسيقى، شاهد مئات الآلاف من الحاضرين تيموجين يُسبغُ عليه لقب جنكيز خان، حاكم جميع القبائل - كانت التسمية في الأصل شينكيز خان، والكلمة مشتقة من كلمة "شين" التي تعني باللغة المغولية «القوي، والثابت، والراسخ، وغير الهياب». كانت التسمية التي اختارها لإمبراطوريته الجديدة هي "الأمة المغولية العظمى"؛ إلا أنه سجل موقفاً لافتاً عندما أطلق على أتباعه تسمية "شعب الجدران المصنوعة من اللباد" وكان بذلك يشير إلى المادة التي كان جميع البدو الرحل يصنعون منها خيامهم. لقد استطاع جنكيز خان أن يصنع من القبائل والعشائر العديدة المتناحرة في تلك السهوب "أمة" [١٢].

بعد أن استتبت له مقاليد الحكم، قام جنكيز خان باتخاذ عدد من الخطوات الراديكالية للمحافظة على وحدة إمبراطوريته الجديدة. أصدر أمراً منع بموجبه سرقة الحيوانات، واختطاف النساء، وكان هذان الأمران مصدرين موغلين في القدم للنزاعات في منطقة السهوب. وكانت عقوبات مخالفة هذا الأمر شديدة: أي شخص يقوم بسرقة حصان أو عجل على سبيل المثال، كان يعاقب «بشطره إلى نصفين». كما كان يحكم بالموت على الزانيات والجواسيس والسحرة «والأشخاص الذين يرتكبون أفعالاً شنيعة». الأهم من كل ما تقدم أن جنكيز خان أصدر أمراً منح بموجبه حرية التعبد المطلقة للجميع من بوذيين ومسيحيين ومسلمين وشامانيين. كما أعفي من الضرائب والخدمة العامة جميع القادة الدينيين من الرهبان و«مؤذني الجوامع» وكل «الأشخاص الذين كرسوا أنفسهم للممارسات الدينية». استمر هو نفسه على نفس المعتقد الذي كان يؤمن به، ألا وهو الاعتقاد بحيوية المادة، حيث كان يتعبد القوى الروحية في الطبيعة [١٣].

استمر جنكيز خان في الوقت نفسه في ضم مختلف القبائل والأعراق إلى الأمة المغولية العظمى مثل الكوريين وقبائل الغابات في سيبيريا. لقد استطاع استيعاب

محاربي هؤلاء الأقوام والقبائل ضمن جيشه في معرض محاولته السيطرة على الانقسامات العرقية وذلك من خلال ترتيب زواجات بين أبنائه وأبناء زعماء القبائل التي قام بإخضاعها لحكمه. كما قام بتجنيد أكثر رجال تلك القبائل قوة، مضيفاً بذلك إلى المغول مواهب ومهارات لم يعرفها هؤلاء من قبل قط. هكذا بدأ المغول اكتساب مهارة الكتابة.

يروى أنه بعد أن أخضع جنكيز خان النيامين إلى حكمه سنة ١٢٠٤، أصيب بالدهشة عندما اكتشف أن خان النيامين كان لديه ناسخاً من أصل إيغوري استعمله لتوثيق جميع قراراته الرسمية. كان الشعب الإيغوري الذي يمت بصلة قربى مباشرة مع المغول قد تعلم التوثيق من خلال كتابة المخطوطات عن طريق البعثات التبشيرية المسيحية. وكان المخطوط مكتوباً بالأبجدية السريانية، مستخدماً الخط الأفقي وذلك من اليمين إلى الشمال في البداية. قام جنكيز خان بضم الناسخ الإيغوري الذي كان يعمل لدى الخان النيامني إلى حاشيته. الأهم من ذلك، أصدر إليه أمراً بإنشاء نظام كتابي جديد يوائم المخطوط الإيغوري مع اللغة المغولية. كان المخطوط الإيغوري-المغولي نسخة تكاد تكون مطابقة للمخطوط الإيغوري القديم، باستثناء أنه كتب بشكل عمودي من الأعلى باتجاه الأسفل على نمط الكتابة الصينية. استمر جنكيز خان على مدى السنين اللاحقة باستخدام ناسخين إيغوريين والاعتماد عليهم في عملية تسهيل التواصل بين مختلف أجزاء الإمبراطورية [١٤].

بحلول سنة ١٢٠٦، كان الشخص الذي بدأ حياته باسم تيموجين - الفار من وجه العدالة، والذي قيل إنه كان يخشى الكلاب ويبكي بسهولة عندما كان صبياً - قد تحول في سن الرابعة والأربعين إلى حاكم على كل منطقة السهوب. إلا أن جنكيز خان كان ما يزال إمبراطوراً على البدو الرحل. وكانت ما تزال أمامه مهمة الاستيلاء على العالم المتحضر.

الفتوحات باتجاه الشرق

كانت الصين في بداية القرن الثالث عشر منقسمة على نفسها، وكانت على شفير الهاوية «مثل امرأة عجوز، غارقة في التأمل وغير مبالية، ترتدي الكثير من الألبسة الأنيقة، ويحيط بها العديد من الأطفال». لكن الصين مع ذلك، كانت بالمقارنة مع السهوب، ما تزال تبدو في غاية الروعة، وغنية بالمعابد وبحيرات المتعة والتنينات الفضية والعيون الفيروزية وتماثيل الفتيات المغناجة، وقطع الشطرنج العاجية ومزهريات ذات آذان تشبه طائر الفينيق. وبينما كان رعايا جنكيز خان من الصيادين والرعاة، كان من بين المواطنين الصينيين موظفون كبار ومفكرون وشعراء وخطاطون وبناة جسور ومتسولون وصناع البرونز وأرستقراطيون وأمراء وبالطبع، الإمبراطور [١٥].

في تلك الأثناء، كان في الصين أكثر من إمبراطور واحد. كانت مملكة الجورشيين الذين ينتمون إلى أصول بربرية، والذين كانوا في الأصل من رجال الغابات في منشوريا، تسيطر على الصين الشمالية. كان الملك الجورشي يحكم من مقره في العاصمة زونغدو التي اسمها الآن بيجين، أكثر من خمسين مليون نسمة. أما الصين الجنوبية، فقد كانت تسيطر عليها سلالة سونغ الحاكمة والتي كانت أكبر، وأكثر قوة ونفوذاً. اتخذت هذه السلالة من مدينة هانغزو مقراً لها حيث خضع أكثر من ستين مليون نسمة لحكم ابن السماء الصيني. وكان تحت تصرف كلّ من الإمبراطورين السونغي والجورشي جيوش تفوق بكثير أعداد جيش جنكيز خان، ناهيك عن الخنادق المائية والأسوار التي تحمي المدن الكبرى بالإضافة إلى التحصينات الهائلة الأخرى والأسلحة المتطورة. لم يعرْ أي من هذين الحاكمين كبير اهتمام للبدو الرحل المغوليين – فقد كانا مشغولين جداً بمحاربة بعضهما بعضاً.

بحلول سنة ١٢١٠، أرسل الإمبراطور الجورشي الذي لم يكن قد مضى على اعتلائه العرش سوى مدة قصيرة وفداً إلى منطقة السهوب المغولية. طالب أعضاء

الوفد جنكيز خان بدفع الجزية وإعلان الولاء للإمبراطور؛ نظراً إلى أن جنكيز خان كان ما يزال بحسب القائمة الرسمية «القائد الذي يحارب المتمردين»، وأحد رعايا الإمبراطور الجورشي. ولكن بدلاً من أن يسجد جنكيز خان أمام زعيم الوفد، قيل إنه بصق على الأرض ونعت الحاكم الجورشي «بالأبله»، امتطى بعدها فرسه وقاده إلى جهة غير معلومة. وكان هذا التحدي الذي أظهره القائد المغولي بمثابة إعلان حرب.

يشكك المؤرخون في مسألة رغبة جنكيز خان في القيام بغزو المملكة الجورشية وذلك بهدف السيطرة على مصادر التموين والبضائع التجارية التي كانت تمر عبر مناطقهم. ما من شك في أن جنكيز خان ازداد ثقة بنفسه بعد قيامه بإخضاع التنغوتيين الذين وإن كانوا أقل عدداً وعدة من جيرانهم الجورشيين، فقد كانت لديهم تحصيناتهم القوية من الأسوار. كان جنكيز خان قد أخضع التنغوتيين بالرغم من الكارثة التي تسبب فيها لنفسه. ففي أثناء محاولتهم إغراق عاصمة التنغوتيين، قام المغول بتحويل قسم من النهر الأصفر؛ ولكن نظراً إلى أنهم لم يكونوا يتمتعون بأي مهارات هندسية، قاموا بإغراق معسكرهم نفسه. مع ذلك، استطاع جنكيز خان أن يعقد تحالفاً مع الملك التنغوتي الذي قام بتزويده بالجمال التنغوتية الشهيرة (كاحتياط للخيالة المغول)، كما زوجه من ابنته [١٦].

في غضون ذلك، وبالرغم من أن الإمبراطور الجورشي قد تملكه الغضب من وقاحة جنكيز خان، فلم يلق على ما يبدو بالاً لفكرة قيام المغول بتشكيل أي تهديد حقيقي لإمبراطوريته. نسب إليه تباهيه بالقول «إن إمبراطوريتنا كالبحر، أما إمبراطوريتك فليست سوى حفنة من الرمال. كيف لنا أن نهابكم؟» كانت ثقته بقدراته مفهومة؛ فالأسوار الهائلة التي تحيط بمدن الجورشيين عصية على الاقتحام من قبل أي جهة غازية، خصوصاً وأن المغول لم تكن لديهم سوى أسلحة بدائية. بالإضافة إلى ما تقدم، كان الجورشيون يفوقون المغول عددياً بنسبة تفوق اثنين إلى واحد.

لكن جنكيز خان كان قائداً فذاً بكل المعايير. فقد كان الجيش المغولي يختلف بشكل صارخ عن الجيوش التقليدية؛ ذلك أن جميع أفراده كانوا من الخيالة. وكان عدم وجود الجنود المشاة بين أفراد الجيش المغولي قد وفر له ليس فقط حرية وسرعة حركة أكبر، بل قدرة على توجيه ضربات مفاجئة وحاسمة. كان أفراد جيش جنكيز خان غلاظاً شداداً وفي غاية الانضباط، كما كانوا يتمتعون بروح المبادرة. زعم ماركو باولو أن أولئك الجنود كان بإمكانهم الركوب مدة عشرة أيام من دون توقف كي يوقدوا ناراً، يقتاتون في أثنائها على اللحم المقدد والحليب المجفف الممزوج ببعض الماء. وعندما لم يكن الماء متوافراً كي يرووا ظمأهم، «كانوا يفتحون وريداً من جسم الحصان ويلعقون كمية قليلة من دمه يقومون بعدها بإغلاق ذلك الوريد.» كان المحاربون يحصلون أحياناً على اللحم الطازج إما من خلال ذبحهم لبعض الماشية الاحتياطية التي تكون برفقتهم في العادة، أو من خلال الصيد أو السرقة [١٧].

استطاع جنكيز خان في نهاية المطاف هزيمة الجورشيين مستخدماً الحيلة والحرب النفسية، وربما أهم من ذلك، باستغلاله السكان الجورشيين أنفسهم وتقاناتهم ضد الجيش الجورشي. كان المغول في العادة، وقبل استيلائهم على المدن الكبيرة، يقومون بحرق القرى المحيطة بتلك المدن أولاً. كان القرويون المذعورون يفرون باتجاه تلك المدن طلباً للحماية، وكانوا بذلك يسدون الطرقات ويقطعون قوافل الإمدادات. وكان تدفق ما يربو على مليون من هؤلاء اللاجئين باتجاه تلك المدن يؤدي إلى اكتظاظ لا يطاق، وكان ذلك يتسبب في نشر الفوضى والأوبئة؛ وكانت مؤن الطعام تنفد بسرعة. وعندما كانت الحال تصل إلى حد المجاعة، تبدأ عمليات النهب والسلب والعصيان والاقتيات على اللحم البشري. في إحدى المرات، قام الجنود الجورشيون بذبح ثلاثين ألفاً من القرويين من بني جلدتهم. في غضون ذلك، كان المغول خارج أسوار المدن تلك، يرغمون آلافاً من القرويين للعمل في خدمتهم بإشراف الجنود المغول، وكانوا يحملون لهم الماء ويحفرون الخنادق ويجرون المنجنيقات الخشبية الهائلة الحجم وراجمات الحجارة. كان المغول يظهرون عدم

اكتراث مطلق لحياة أسراهم الذين كانوا يستخدمونهم كدروع بشرية. وعندما كانت هذه الدروع البشرية تموت، كان المغول يستخدمون تلك الجثث لردم خنادق العدو.

كان جنكيز خان -في الوقت نفسه- شغوفاً بتجنيد أشخاص مهرة، ومن ذوي الخبرات التكنولوجية التي كانت تعوز المغول أنفسهم. كان المغول بعد كل معركة، يتفحصون أسراهم بدقة وعناية، ويفيدون من أي مهندس يكتشفونه بين الأسرى. وكانوا أيضاً يقدمون مكافآت مجزية لأي مهندس يترك جماعته وينضم إليهم باختياره. استطاع جنكيز خان من خلال هذه الوسائل استقطاب أعداد كبيرة من المهندسين الصينيين الذين كانت لديهم المعرفة والخبرة الضروريتان لتصميم وبناء آلات قوية تستخدم في محاصرة تحصينات العدو - من أبراج متحركة، وراجمات النبال، ومنجنيقات قاذفة للهب، وسهام نارية، وراجمات الصخور ومتفجرات - واقتحام أسوار مدن كان يعتقد أنها عصية على الأعداء. أصبحت هذه الأسلحة جزءاً من ترسانة الجيش المغولي، وقد تم ضم المهندسين الصينيين الذين قاموا بتصميمها إلى صفوف الجيش المغولي. مع كل نصر جديد، كانت آلة الحرب المغولية تصبح أكثر تطوراً وأكثر قدرة على الإبادة [١٨].

مع ذلك، لم يكن فتح مملكة الجورشيين المحصنة تحصيناً شديداً بالمهمة السهلة. ومما زاد الأمر سوءاً، أن أيام الصيف الحارة والرطبة في الصين الشمالية كانت لا تطاق بالنسبة للمغول الذين غالباً ما كانوا يقعون فريسة للمرض في المناطق المدنية المكتظة سكانياً. واحتاج رجال جنكيز خان إلى ثلاث سنين شنوا خلالها العديد من الحملات قبل أن يتمكنوا في النهاية من تطويق مدينة زونغدو، العاصمة الإمبراطورية سنة ١٢١٤. ولكن بدلاً من قتال المغول، اختار الإمبراطور الجورشي المحاصر الموافقة على ترتيب اقترحه جنكيز خان. فمقابل انسحاب الجيش المغولي، قام الجورشيون بالاعتراف بسلطة جنكيز خان والتسليم له بالحكم. قدم الإمبراطور الجورشي «هدايا» لجنكيز خان بهدف تهدئة الخواطر؛ وكانت هذه الهدايا عبارة عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والحرير، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف رأس من

الخيل، وخمسمئة من الصبيان وخمسمئة من الفتيات على شكل عبيد، كما زوجوه من أميرة جورشية [١٩].

احترم جنكيز خان بنود هذه الصفقة، وقفل عائداً مع رجاله إلى السهوب المغولية. وكما كان الأمر بالنسبة إلى ممالك الإيغوريين والتنغوتيين والخيطانيين، فقد سمح جنكيز خان للجورشيين بممارسة قدر كبير من الحكم الذاتي طالما أنهم استمروا في الاعتراف بتبعيتهم له، ودفع الجزية. لم يكن لدى المغول في حقيقة الأمر الرغبة أو الإمكانية في الحكم المباشر لهذه الحضارات الموغلة في القدم، والتي قاموا بفتحها. ولكن بعد انقضاء وقت قصير على انسحاب الجيش المغولي، قام الإمبراطور الجورشي بالفرار جنوباً وأسس لنفسه بلاطاً جديداً في مدينة كيفينغ. اعتبر جنكيز خان هذا العمل نقضاً للاتفاق المبرم بينهما وشكلاً من أشكال الخيانة؛ فعاد أدراجه فوراً إلى الصين. وفي هذه المرة، أعمل بمدينة زونغدو فتكاً وتخريباً، ثم سواها بالأرض بعد أن حرقها ونهبها من دون رحمة. وبحسب أحد شهود العيان على ما جرى، «كانت عظام القتلى مكدسة فوق بعضها بعضاً لدرجة أنها شكلت جبلاً من العظام البشرية، وكانت الأرض مثخنة بأكداس من الشحوم البشرية، وأدت الجثث المتحللة إلى انتشار الأوبئة.» وبحسب شاهد عيان آخر، فقد «قامت ستون ألفاً من النساء الصينيات برمي أنفسهن من على أسوار المدينة ... كي لا يقعن فرائس في أيدي الجنود المغول» [٢٠].

اكتملت عملية فتح الصين الشمالية سنة ١٢١٥، والتي ثبت أنها مكسب كبير للمغول. عاد رجال جنكيز خان إلى السهوب وقد ملؤوا عرباتهم البدائية ببعض أعظم القطع الفنية الموجودة في ذلك العصر: ثياب من الحرير موشاة بعيدان الصليب الذهبية، وأحجار كريمة على هيئة ثيران، وتماثيل لبوذا، ومزهريات فخارية خضراء صينية تقليدية، وأثاث مطلي بالورنيش، وسجاد، ورقع للألعاب، ودمى متحركة مطلية يدوياً، وأغطية للرأس مطرزة بالمرجان والزمرد، واللآلئ واللازورد. أمر جنكيز خان ببناء عدد من الأبنية في السهوب المغولية وذلك لأول

مرة في تاريخ المغول من أجل تخزين هذه البضائع الثمينة. وبالرغم من أن ذلك المجمع أطلقت عليه تسمية القصر الأصفر، إلا أنه استخدم في واقع الأمر كمستودع؛ وذلك لأن جنكيز خان وأتباعه استمروا في العيش داخل خيامهم المتنقلة، والمصنوعة من اللباد.

لكن الجائزة الحقيقية التي حصل عليها جنكيز خان كانت تكمن في رأس المال البشري الذي أضحى الآن في حوزته. فبالإضافة إلى المهندسين، اصطحب جنكيز خان معه من الصين الشمالية فيالق كاملة من الجنود والضباط، كان العديد منهم قد فروا من الخدمة والتحقوا بجيش جنكيز خان؛ وكان من بين من اصطحبهم أيضاً لاعبو الخفة ولاعبو الجمباز، وبهلوانيون، وموسيقيون، وراقصون، بالإضافة إلى حرفيين مهرة بمن فيهم الخياطون، والصيادلة، والمترجمون، وصانعو الأدوات الفخارية، والصاغة، وعلماء الفلك، والرسامون، والحدادون، والأطباء. بالرغم من أميته، وربما بسببها، قام جنكيز خان باستقطاب علماء من كل الأعراق مثل العلاّمة يلوتشوسي الذي ينتمي إلى العائلة المالكة الخيطانية، والضليع في العديد من اللغات، والذي كان يقدم باستمرار المشورة لجنكيز خان، وبقي موالياً له طيلة حياته.

بقي التسامح الديني علامة فارقة في حكم جنكيز خان. اتضحت فيما بعد نجاعة هذا الأسلوب الذي كان أداة قوية أسهمت في عملية بناء الإمبراطورية. فبعد انقضاء مدة قصيرة على عودة جنكيز خان إلى السهوب المغولية من الصين على سبيل المثال، وصل مبعوثون مسلمون من مدينة بلسغون في وسط آسيا، فيما يعرف اليوم بقيرغزستان. شرح الوفد لجنكيز خان معاناة المسلمين من الاضطهاد الديني الذي يلاقونه على يدي حاكمهم المسيحي غوشلوغ خان الذي منع المسلمين من رفع الأذان للصلاة، والتعبد على الطريقة الإسلامية. طلب الوفد الحماية من الخان المغولي العظيم، وكان من دواعي سروره تلبية طلبهم ذاك. قام إثر ذلك الجيش المغولي بغزو بلسغون، وتم قطع رأس غوشلوغ خان وضم أراضيه إلى الإمبراطورية المغولية. بعد ذلك بمدة وجيزة، قام جنكيز خان بالإعلان عن حرية ممارسة التعبد

في كافة أنحاء أراضي غوشلوغ. وهكذا، فقد أصبح الرجل الذي أطلقت عليه أوروبا فيما بعد وصف "سوط الله"، يعرف في الشرق من منطقة التيبيت إلى بحر الأورال باسم المدافع عن الأديان - حتى إن المؤرخ الفارسي جيوفيني من العصور الوسطى وصفه بأنه « تجسيد لرحمة الله بعباده، ونعمة أسبغها المولى على البشرية»[٢١].

الفتوحات باتجاه الغرب

ربما أتخمت الحرب جنكيز خان الذي بات يسيطر الآن بشكل كامل على طريق الحرير بين المنطقة العربية والصين. ربما استطاع جمع ما يكفي من الغلال عن طريق الحرب كما يشير معظم المؤرخين، وأراد بعد ذلك أن يقضي ما تبقى له من العمر بهدوء في تلك السهوب. بغض النظر عن الأسباب التي حدت به للقيام بذلك، فقد اقترح جنكيز خان سنة ١٢١٩ على السلطان المسلم محمد الثاني، سلطان خوارزم، إقامة علاقات تجارية سلمية بينهما.

كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه في القرن الثالث عشر. فقد كان السلاجقة الأتراك يسيطرون على آسيا الوسطى، وكان هناك خليفة عربي في بغداد. لكن سلطان خوارزم الذي كان من أصول تركية أيضاً، كان يبسط حكمه على مناطق شاسعة شكلت إمبراطورية عظمى كانت تمتد من الهند إلى نهر الفولغا، وتضم في جنباتها مدناً رائعة مثل نيسابور وبخارى وسمرقند. كانت أراضي المسلمين أكثر بقاع الأرض غنى، وكانت حضارتهم في كثير من جوانبها، الأكثر تقدماً ورقياً. لم يكن يوجد مجتمع على وجه الأرض يتمتع بتلك الدرجة العالية من التعلم بين أفراد الشعب، أو يفوق ذلك المجتمع في مجالات مثل الرياضيات واللغويات والهندسة الزراعية وعلم الفلك والأدب والتقاليد القانونية. وهكذا فلم يكن من المفاجئ معرفة أنه بالرغم من أن سلطان خوارزم قبل ظاهرياً العرض السلمي المقدم من جنكيز خان، فقد تم بعد سنة على هذا الاتفاق ذبح ٤٥٠ رجلاً كانوا يشكلون وفداً تجارياً مغولياً في الأراضي الخوارزمية. عندما وصلت أنباء تلك المذبحة إلى جنكيز خان،

قام بإرسال وفد إلى السلطان يطلب فيه معاقبة المسؤولين عن تلك المذبحة. رد السلطان على هذا الطلب بقتل رئيس الوفد، وإعادة الآخرين إلى جنكيز خان مشوهي الوجوه. وكان ذلك خطأ مميتاً لم يكلف السلطان إمبراطوريته وحياته وحسب، بل «أدى إلى خراب العالم»[٢٢].

لم يخطر ببال سلطان خوارزم، شأنه في ذلك شأن الإمبراطور الجورشي، أن القوات المغولية يمكن أن تشكل تهديداً حقيقياً له. فقد كانت المدن الخوارزمية الكبرى محصنة تحصيناً قوياً؛ وكانت السهوب المغولية تبعد عن حدود خوارزم مسافة ألفي ميل جلها من الجبال الوعرة والأراضي الصحراوية لا يمكن لأي جيش أن يعبرها. انتظر جنكيز خان، خلافاً للمنطق، حلول فصل الشتاء كي يقوم بعملية عبور تلك المنطقة. كان يعرف أنه سيواجه رياحاً شديدة البرودة تنخر العظام، وأن جبالاً من الثلج وكتلاً من الجليد سوف تعيق من تقدمه. لكن المغول كانوا يفضلون البرد؛ ذلك لأن عبور الصحراء القاحلة في الصيف سوف يكون أكثر خطورة بكثير على الجيش المغولي. ويبقى عبور جنكيز خان إلى آسيا الوسطى الذي تسبب في إزهاق أرواح عشرات الآلاف من المحاربين إلى يومنا هذا، واحداً من أعظم الأعمال العسكرية في التاريخ.

ولكن بالرغم من كل الشجاعة والجَلَد اللذين تميز بهما رجال جنكيز خان، فإنه لم يكن باستطاعتهم اقتحام القلاع الصخرية الخوارزمية لولا آلات الحصار الضخمة التي صممها المهندسون الصينيون وبنوها عملياً في ميدان المعركة. على العكس من الجيوش التقليدية، كان الفرسان المغول يسافرون من دون تجهيزات ثقيلة، كان من شأنها أن تبطئ حركتهم. بدلاً من ذلك، كانوا يصطحبون معهم مهندسين أجانب كانوا يقومون بكل بساطة، ببناء أي معدات هجومية يحتاجونها مستخدمين في ذلك كل الوسائل والمصادر المتوافرة. وهكذا، وبعد إتمام عملية عبور الصحراء بنجاح، قام رجال جنكيز خان بقطع الأشجار التي صادفوها في طريقهم، من جذوعها قام المهندسون الصينيون ببناء سلالم متحركة، وقاذفات

نبال عملاقة كانت تُجر على دواليب، ومنجنيقات تستخدم فيها الحبال (وهي عبارة عن منجنيقات ذات ذراع واحد) وتقذف الحجارة والسوائل الملتهبة، بالإضافة إلى أسلحة متطورة تستخدم في الحروب التي تبدأ باستخدام الحصار، والتي لم يكن من المتوقع أن تكون بحوزة محاربين «بدائيين»[٢٣].

كانت الدفاعات الخوارزمية الرئيسة تتركز في المدن الكبرى في الواحات مثل بخارى وسمرقند بالإضافة إلى سلسلة من المعاقل الأقل حجماً. بعيداً إلى جهة الشرق، استطاعوا إحكام قبضتهم على مدن فارسية هي نيسابور وتبريز وقزوين وهمدان وأردبيل. انهارت دفاعات هذه المدن الواحدة إثر الأخرى أمام هجمات المغول. كانت المدينة الأولى التي تم اقتحامها وتخريبها بشكل منظم، هي بخارى بمساجدها المهيبة وجامعاتها وما كان يعتقد «أنه الجدار الذي يلفها اثنتي عشرة مرة.» أما المدينة اللاحقة التي سقطت فكانت سمرقند المليئة بحدائق البهجة، والتي كان يحميها سور له «اثنتا عشرة بوابة حديدية وتتخلله مجموعة من الأبراج» بالإضافة إلى «عشرين من الفيلة المدججة بالسلاح ومئة وعشرة آلاف من المحاربين الأتراك والفرس.» وعندما ظهر المغول المدججون بآلاتهم الحربية النارية المهولة، بادر سكان سمرقند وحاميتها إلى الاستسلام؛ ذلك أن الذعر انتابهم من تقارير واردة تتحدث عن وحشية المغول اللا إنسانية المتمثلة في الاغتصاب والتعذيب وتقطيع الأوصال والمذابح الجماعية.

ليس هناك شك في أن المغول قتلوا أعداداً هائلة من الناس وتسببوا في دمار لم يعرف له التاريخ مثيلاً. فبعد مقتل صهر جنكيز خان في معركة نيسابور، قيل إن جميع سكان المدينة قد تمت إبادتهم على إثر ذلك. كما قيل إن رؤوس الرجال والنساء والأطفال المقطوعة جمعت في ثلاث أكوام طال ارتفاعها عنان السماء؛ «ولم تسلم من مذابح المغول الجماعية حتى الكلاب والقطط.» كانت هذه التقارير التي تتحدث عن وحشية المغول مبالغ فيها، إلا أن جنكيز خان كان يشجع نشر مثل هذه التقارير كشكل من أشكال الحرب النفسية زمن الحرب. ربما تعمد المغول في واقع

الأمر تضخيم أعداد الناس الذين قاموا بقتلهم من أجل إرهاب أهدافهم البشرية اللاحقة [٢٤].

بالرغم من الاختلاف في تفاصيل كل حصار قام به المغول، كان جنكيز خان يتبع نفس الإستراتيجية الأساسية. ففي أواسط آسيا، تماماً كما في الصين الشمالية، كان يهاجم أولاً القرى غير المحصنة في المناطق الريفية المحيطة بالمدن، ويقوم بإحراقها؛ كان بعد ذلك يأسر السكان، ثم يقتل العديد منهم. كان ذلك يؤدي إلى تدفق أعداد هائلة من المهاجرين المذعورين باتجاه تلك المدن، وهو ما جلب الكثير من الفوضى والمجاعات والحكايات المرعبة للمدن التي تدفقوا إليها. كان المدنيون المحاصرون يواجهون أحد خيارين: أولئك الذين استسلموا كانوا يعاملون برفق. أما الذين رفضوا الاستسلام، كما في نيسابور، فقد واجهوا الموت الزؤام.

إذاً، لم يكن مثار دهشة، قيام العديد من السكان المدنيين – مثل بخارى وسمرقند – بالاستسلام للمغول وفتح بوابات مدنهم لهم. (ربما كان أحد العوامل المساعدة في هذا أن العديد من رعايا خوارزم كانوا من الفرس والطاجيق، ولم يكونوا موالين تماماً لسلطانهم التركي.) كان الأرستقراطيون والحكام والجنود المقاومون يتم إعدامهم. بالمقابل، كان رجال الدين يوضعون تحت حماية جنكيز خان المباشرة، كما كان يتم استقطاب المدنيين ممن يمتلكون مهارات خاصة مثل نافخي الزجاج، وصانعي الفخار، والنجارين، وصانعي الأثاث، والطباخين، والحلاقين، والتجار، والصاغة، والدباغين، وعمال الورق، والصباغين، والأطباء، وسائسي الجمال. وربما كان أهم عامل في التوسع السريع لإمبراطورية جنكيز خان قيامه باستيعاب علماء خوارزم الذين ينتمون إلى أصول وأعراق متعددة: كالحاخامات وأئمة المساجد والمدرسين والقضاة وأي شخص يجيد أي لغة أجنبية قراءة وكتابة[٢٥].

اكتملت عملية فتح جنكيز خان لخوارزم سنة ١٢٢٣. (قيل إن السلطان الذي لاذ بالفرار مطارَداً من قبل حشد من الجنود المغول في أعقابه، توفي وحيداً ومعوزاً في

جزيرة قصية في بحر قزوين.) فعل جنكيز خان المستحيل من جديد: فقد عبر ألفي ميل من المناطق الجليدية والصحراوية، واقتحم تحصينات عصية، وحطم جيوشاً أكبر من جيشه عدداً وعدة، ووضع واحدة من أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض، وأغناها وأكثرها أبهة تحت إبهام رجل كان في صباه يقتات على الفضلات وينام في خيمة من صوف اللباد.

الآن، وهو في منتصف الستينيات من عمره، ويحكم الإمبراطورية الأكبر في العالم، يقفل جنكيز خان عائداً إلى السهوب المغولية. توفي سنة ١٢٢٧، محاطاً بعائلته وأصدقائه، وجنرالاته الذين بقوا موالين له. وبحسب العادات المغولية، تم دفنه بطريقة سرية، وفي مكان سري. (تقول الحكاية الشعبية إن أمراً صدر إلى ثمانمئة من الفرسان ليدوسوا بحوافر خيولهم بشكل متكرر المنطقة التي دفن فيها جنكيز خان بغية إزالة أي أثر لقبره. تم بعد ذلك قتل هؤلاء الفرسان الثمانمئة على يد مجموعة من الجنود، الذين قُتلوا بدورهم بعد ذلك على يد مجموعة أخرى من الجنود، وهؤلاء أيضاً تم قتلهم.) استناداً إلى إدوارد غيبون، «مات جنكيز خان في أوج عمره ومجده، وفي آخر لحظة في حياته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان يوجه النصح والإرشاد لأبنائه كي يقوموا بفتح الإمبراطورية الصينية والاستيلاء عليها»[٢٦].

محنة أوروبا

لم يرتقِ أداء أبناء جنكيز خان إلى المستوى المأمول منهم، وكان والدهم يعلم ذلك. في سني حياته الأخيرة، بدأ جنكيز خان ينتابه القلق بشأن المحافظة على إمبراطوريته وحمايتها. وبالرغم من أن حملاته الأولى كانت تكتنفها بشكل أساسي عمليات التخريب، إلا أنه بعد أن تقدم به العمر، بدأ يتحدث عن «توحيد العالم بأسره». قال لأبنائه «لا يمكن لأي شخص أن يدير حياته، ناهيك عن إدارة حياة الآخرين من دون أن تكون لديه رؤية وهدف.» كان أكثر ما يقلق جنكيز خان بشأن

أبنائه، هو احتمال قيامهم بالاقتتال فيما بينهم، خصوصاً حول من منهم سوف يخلفه في منصب الخان الأكبر. كانت مخاوفه في محلها. لم يكن أي من أبنائه الأربعة يتمتع بالحكمة أو القسوة أو القدرة على إلهام إحساس الآخرين بالولاء، والتي كان جنكيز خان يمتلكها. تقاتل الأخوان الأكبر فيما بينهما بمرارة - كانت حجة الثاني التي كان يلمح إليها هي أن الأول كان ابناً غير شرعي - لدرجة أنه كان على جنكيز خان أن يلجأ إلى حل وسط اختار بموجبه ابنه الثالث وريثاً له: أوغودي المرح والمسكون بمعاقرة الخمرة [٢٧].

بدأ أوغودي المبذر والسخي اليد بشكل مَرَضي بالإنفاق من دون حساب منذ اللحظة التي استلم فيها الحكم. يقال إنه فتح أبواب خزينة الدولة على مصراعيها في حفل تنصيبه، وقام بتوزيع محتوياتها بما في ذلك أكوام من اللآلئ والجواهر على رعاياه الجدد. كما أمر ببناء عاصمة جديدة تتضمن قصراً إمبراطورياً وحدائق من تصميم مهندسين معماريين صينيين، ويقوم بزخرفتها حرفيون صينيون، وتحاط بالأسوار وذلك للمرة الأولى في تاريخ السهوب. أطلق على المدينة اسم كراكورم، وهذه التسمية تعني «الصخور السوداء» أو «الأسوار السوداء». وبالرغم من شموخ ذلك القصر، إلا أنه كان يستخدم بشكل رئيس كمستودع، ومسكن للحرفيين؛ أما العائلة المالكة فقد فضلت العيش في خيامها المصنوعة من اللباد. خصص ثلث المدينة لإقامة هيئات الإداريين الأجانب - من نُسّاخ ورجال فكر من جميع البلدان التي تم فتحها وإخضاعها - الذين كانوا يقومون بكافة أعمال الاتصالات، ويديرون كافة شؤون الإمبراطورية لصالح العائلة المالكة التي كان أفرادها من الأميين. كما أمر أوغودي بإنفاق مبالغ طائلة من أجل تشييد دور للعبادة لرعاياه المتنوعين عرقياً وثقافياً بما في ذلك المساجد والكنائس والمعابد البوذية والتاوية محولاً بذلك مدينة كراكورم البسيطة إلى عاصمة تحتضن أكبر تجمع ديني متنوع في العالم.

كانت عملية تسيير أمور مدينة كراكورم مكلفة جداً، كما كان مزاجه الميال إلى الإسراف والتبذير يتطلب الكثير من المال. وكان المغول أنفسهم ما يزالون رعاة رُحّل

بشكل رئيس. وكانت الجزية التي فرضها المغول على رعاياهم في الإمبراطورية، والتي تُعد المصدر الوحيد للدخل قد بدأت بالضمور في ظل حكم أوغودي المتراخي. الأهم من ذلك، لم يكن أوغودي رجل أعمال موهوب. فلكي يغري التجار بالقدوم إلى عاصمته القصية، كان يدفع أموالاً طائلة ثمناً لبضائع لم تكن تفيده في شيء – مثل أنياب العاج، واللآلئ، وصقور الصيد وأحزمة جلدية مرصعة بالجواهر، ومقابض للسياط مصنوعة من خشب الصفصاف، والكؤوس المذهبة والفهود» – ثم يقوم بتوزيعها هنا وهناك. بحلول سنة ١٢٣٥، تبخرت كل الثروة الهائلة التي كدسها جنكيز خان تقريباً. لم يكن أمام المغول سوى خيار واحد: غزو أراضٍ جديدة ونهب ثرواتها.

قام أوغودي بجمع مجلسه الحربي لتحديد الهدف اللاحق، وهناك حدثت خلافات شديدة. أراد بعض المشاركين غزو الهند؛ وآخرون تبنوا الرأي القاضي بغزو مدن عظمى مثل بغداد ودمشق. ورأى فريق آخر، ومن بينهم أوغودي نفسه اجتياح إمبراطورية سونغ الصينية المتداعية التي قاومت محاولات المغول احتلالها مدة ثلاثين سنة. لكن الصوت المرجح كان صوت سابودي العجوز الذي كان واحداً من أكثر جنرالات جنكيز خان ولاء وأهلاً للثقة، والذي قام بدور حاسم في صناعة جميع انتصارات المغول في المعارك التي خاضوها. حث سابودي العجوز الجميع على غزو أوروبا – وهي أرض لم يكن يسمع بها إلا أقل القلة من المغول.

مر سابودي بأوروبا بمحض المصادفة قبل ذلك باثنتي عشرة سنة عندما كان يطارد برفقة جنرال آخر سلطان خوارزم. بعد وفاة السلطان، حصل سابودي على إذن من جنكيز خان لاستكشاف الأراضي غير المعروفة التي تقع شمال بحر قزوين. اكتشف هناك مملكة جورجيا المسيحية التي قام بفتحها، والتي أصبحت بعد ذلك دولة خاضعة لحكم المغول. تابع سابودي اتجاهه شمالاً حيث أخضع كلاً من روسيا وأوكرانيا اللتان كانتا تحكمان من قبل دوقات وأمراء متناحرين، كل واحد منهم له إقطاعيته الخاصة، وجيشه الخاص به. سقطت المدن الروسية، الواحدة منها إثر

الأخرى بينما كان سابودي يجتاح قوات خصومه ويذبح قادتهم. كان على وشك عبور نهر دنايبر باتجاه شرق أوروبا، عندما تلقى أمراً من جنكيز خان يطلب فيه إليه العودة إلى الديار. الآن، يطلب سابودي من المجلس الحربي المنعقد سنة ١٢٣٥ الموافقة على شن حملة عسكرية في الغرب حيث توجد مراعي شاسعة المساحة لخيول المغول، وبالتأكيد، الكثير من الكنوز التي يجب وضع اليد عليها [٢٨].

ونظراً لعجزه عن السيطرة على الخلافات في الرأي داخل المجلس الحربي، اتخذ أوغودي قراراً كان يمكن أن يثير الهلع في قلب والده. فقد قسم الجيش المغولي إلى قسمين، وأعطى أوامر بشن هجوم متزامن على كل من الصين وأوروبا. فشلت الحملة التي قام المغول بشنها على إمبراطورية سونغ، وقتل في هذه الحملة قائدها وكان الابن المفضل لأوغودي. وكان على المغول الانتظار حتى الجيل الآتي قبل أن ينجحوا في غزو الصين. أما في أوروبا فقد كان الانتصار حليف سابودي.

بالرغم من كل عيوب أوغودي، أثبت نجاح الغزو المغولي لأوروبا أن القوات المغولية كانت ما تزال في أوج قوتها. فقد كان الجيش الرئيس يتكون من ١٥٠٠٠٠ من الفرسان، من بينهم ٥٠٠٠٠ من المغول. كان سابودي على دراية بتكتيكات إدارة المعارك التي نفذها جنكيز خان في حياته بالمطلق، وكان يعرف كيف يضعها موضع التطبيق. كما كان من بين أركان القيادة اثنان من حفدة جنكيز خان الأشداء وهما مونجك وباتو. الأهم من ذلك، أن الجيش المغولي الذي استخدم أكثر أنواع الأسلحة تطورا، مستفيداً من التكنولوجيا الإسلامية والصينية، كان يمتلك أسلحة مثيرة للرعب، وغير معروفة في أوروبا. فقد هاجم المغول المدن الأوروبية المحصنة داخل الأسوار ليس بالمنجنيقات والراجمات وحسب - فهذه الأسلحة كانت معروفة للأوروبيين - بل بالمدافع والقنابل النفطية، وراجمات الصواريخ البدائية، والقنابل الدخانية التي كانت تنفث غازات كيماوية تثير روائح قاتلة.

سقطت روسيا وشرق أوروبا أولاً. كان الدمار الذي لحق بكييف التي كانت تُعد

جوهرة العالم السلافي وقلبه الديني سنة ١٢٤٠ قد بث موجات من الشائعات المرعبة التي انتشرت في كافة أنحاء أوروبا. فقد قيل إن المغول هم أشبه بسحابة من الجراد، وأن بين فرسانهم تنينات تبصق النار (ربما كان ذلك إشارة إلى قاذفات اللهب المغولية). وحتى في أصقاع قصية مثل إنجلترا، ذكر ماثيو باريس، وهو راهب من أتباع القديس بينديكيت سنة ١٢٤٠، أن «حشوداً هائلة من أتباع الشيطان المثيرين للاشمئزاز» قد اجتاحت شرق أوروبا. «فهم يرتدون جلود الثيران ويمتشقون رماحاً حديدية؛ قصار القامة، غلاظ البنية، أجسامهم مشدودة ويتمتعون بقوة بدنية هائلة، لا يُقهَرون في المعارك، ولا ينتابهم التعب؛ لا يلبسون دروعاً تغطي ظهورهم، لكنهم يرتدون دروعاً تحمي صدورهم. يشربون الدماء التي يستنزفونها من ماشيتهم، ويعتبرونها من المشروبات الشهية»[٢٩].

كانت وجهة المغول الآتية هي ألمانيا وبولندا وهنغاريا التي اجتاحوها جميعاً. مهّدت هزيمتهم الصاعقة «لزهرة» فرسان أوروبا – تم قتل حوالي مئة ألف جندي – لنهاية عصر الإقطاعية الأوروبية. كان اكتساح المغول لهنغاريا عملاً شائناً؛ فقد ذكر أحد شهود العيان أن «القتلى كان يتساقطون يمنة ويسرة كأوراق الأشجار في فصل الشتاء، وكانت جثث هؤلاء القتلى التعساء منتشرة على طول الطريق، وكان الدم يسيل كزخات المطر المنهمر». اجتاح المشهدَ نوعٌ من الهستريا: كانت تروى قصص عن اختطاف المغول لنسوة عجائز، وعمليات اغتصاب للعذارى المسيحيات من قبل عصابات من المغول – قبل أن يقوموا بالتهامهم في ولائم خاصة – ولكن هذه القصص مشكوك في صحتها.

كانت ردة فعل أوروبا على الهجمات المغولية تتمثل في سيل من التعصب الشديد. فنظراً إلى أن الهزيمة قد شلت حركتهم، ولأن موجة من الإحساس بالضياع قد طغت على عقولهم، وأعجزتهم عن تقديم مبرر مقنع يفسر منطقياً الظهور المباغت لحشود المغول، فقد أنحى رجال الدين الأوروبيون باللائمة على اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم – من بين كل الأقوام الأخرى. فقد زعم هؤلاء أن المغول هم

في واقع الأمر، القبائل العبرية التائهة منذ زمن موسى، والذين حوّلهم الله انتقاماً منهم إلى مجموعة من الوحوش الآدمية غير العقلانية. بالإضافة إلى ذلك، فقد زعموا أن هذه الوحوش تتلقى الدعم والتمويل من الزعماء اليهود النافذين الذين كانوا يخططون بالتنسيق مع إخوانهم التتار للسيطرة على العالم. ولسوء الحظ، فقد تصادفت سنة ١٢٤١ مع سنة ٥٠٠٠ في التقويم اليهودي - أي دليل أبلغ من هذا على «الشر المطلق الذي يمثله اليهود وخيانتهم المخبوءة وخداعهم الذي لا مثيل له»؟ هذه النظريات بكل ما تثيره من اشمئزاز، أسهمت في تأجيج أحقاد أدت إلى نتائج مأساوية. ففي يورك وروما والمدن الأوروبية الرئيسة الأخرى، صب المسيحيون جام غضبهم على جيرانهم اليهود: حرقوا منازلهم، وذبحوهم - وهم بذلك قاموا فعلياً بالأعمال نفسها التي مارسها المغول ضدهم، مع فارق واحد؛ وهو أن هذه الارتكابات كانت تحدث باسم الرب.

كانت أوروبا المسيحية في القرن الثالث عشر منقسمة على نفسها ويحكمها التعصب، استهلكتها الحملات الصليبية والنزاعات الطائفية ومعاداة السامية، واضطهاد الكفرة. وكان التعصب والانقسام اللذان عانت منهما أوروبا قد صبَّا في صالح المغول. فبالرغم من أن المغول كانوا يتميزون بالوحشية في المعارك، إلا أن مبعثها لم يكن التشنج الديني أو الكراهية. وفي الوقت الذي كان الأمراء الأوروبيون يقومون بعمليات التعذيب ضد رعاياهم الأكثر مهارة من غير المسيحيين ويطردونهم، كان المغول يستقطبون نظائر هؤلاء من الشعوب التي يخضعونها بكل حرية، ويجنون من ذلك مكاسب جمة من دون أن يلقوا بالاً للعرق أو الدين. استقطب المغول من أوروبا نماذج جديدة من الناسخين والمترجمين والمهندسين المعماريين والحرفيين، بالإضافة إلى عمال المناجم من مقاطعة سكسونيا الذين لديهم الخبرة كيف يستخرجون من باطن السهوب المغولية مصادر غنى جديدة لم تكن معروفة لدى المغول أنفسهم. عندما ألقى جنود هابسبورغ القبض على أحد الضباط المغول عشية هزيمتهم، اعترتهم الدهشة عندما اكتشفوا أن ذلك الضابط ما هو سوى رجل

إنجليزي فذ يجيد العديد من اللغات تعرض للتهديد بالحرمان من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، لكنه اختار أن يعمل لصالح المغول. قام جنود هابسبورغ بقتله[٣٠].

في نهاية سنة ١٢٤١، توفي أوغودي فجأة حيث كان في حال من السكر الشديد كالعادة. بعد أشهر قليلة، توفي أخوه الأكبر أيضاً؛ وكان آخر أبناء جنكيز خان. لاحت مشكلات الوراثة في الأفق من جديد، وهو ما أجبر كل من مونجك وباتو على العودة مع قواتهما من أوروبا إلى السهوب، وقد وضعا بذلك حداً للموجة الثانية من الفتوحات المغولية. تمتد الآن الإمبراطورية المغولية غرباً إلى حدود فيينا تقريباً. لكنها سوف تتوسع أكثر فأكثر.

سيطرة المغول على العالم

فاق حفدة جنكيز خان أبناءه بكثير قوة وذكاء. لم يخلف أوغودي من بعده ورثة عظاماً. بدلاً من ذلك، وبعد سلسلة من المؤامرات البشعة في القصر، كان الحفدة المنتصرون فيها هم من نسل تولي، وهو الابن الأصغر لجنكيز خان. في ظل قيادة هؤلاء الخانات الجدد – مونجك، وهولاكو، وأريك بوك، وخوبيلاي – اجتاحت الموجة الثالثة من الفتوحات المغولية، وكانت هي الأعظم، العالم.

نُصِّب مونجك وكان الأكبر بين إخوته، في موقع الخان العظيم سنة ١٢٥١. بعدها بفترة وجيزة، أصدر أمراً إلى أخيه هولاكو بفتح الشرق الأوسط، وأمراً آخر إلى أخيه خوبيلاي بفتح الصين الجنوبية. تباطأ خوبيلاي الذي لم يكن متحمساً للحروب، في القيام بالمهمة. لكن هولاكو، ذا الميول العدوانية، لم يهدر وقته؛ وهكذا، فخلال السنين السبع اللاحقة نافست انتصاراته العسكرية في بلاد المسلمين انتصارات جده جنكيز خان.

لم تتحقق آمال سابودي من الحملة التي شنها على أوروبا لأن مردودها كان

ضئيلاً . فقد كانت أوروبا في العصور الوسطى بدائية وغير متطورة وفقيرة بالمقارنة مع الحضارتين العظيمتين الإسلامية والصينية. كانت مدن بغداد ودمشق والقاهرة – التي شكلت أهداف هولاكو الرئيسة – من بين أغنى المدن في العالم. كانت بغداد على وجه الخصوص، القلب التجاري والفني والثقافي للمسلمين. كانت قصورها تخلب الألباب، كما كانت المساجد والكنائس منتشرة في كافة أرجائها، إلى جانب أسواقها المزدهرة وبيوت القمار؛ كانت مدينة شهرزاد متخمة بالذهب والكنوز.

كانت بغداد أيضاً مركز الخلافة العباسية التي تأسست قبل خمسة قرون. كان الخليفة الحاكم هو السابع والثلاثون في سلسلة الخلفاء – وكان الأضعف، والأكثر غروراً، والأقل قيمة من بين جميع خلفاء الرسول محمد. وجه هولاكو تحذيراً إلى الخليفة اعتبر في غاية الوقاحة، وتضمن هذا التحذير الطلب إليه الاستسلام أو الموت. رد الخليفة على هذا التحذير بكثير من العجرفة والتعالي؛ إذ أعلن أن العالم الإسلامي برمته، بدعم من الله، سوف ينتفض كي يذبح الكفار. لكن الخليفة كان مخطئاً في تقديره.

كانت الخلافة العباسية ثيوقراطية النزعة، وتحكم بموجب المذهب السني التقليدي. في منتصف القرن الثالث عشر، كانت المناطق التابعة للخلافة العباسية مليئة بالأقليات المضطهدة مثل الشيعة واليهود والمسيحيين على وجه الخصوص الذين كانوا يتطلعون إلى وقت يطاح فيه بقادتهم من السنة. استغل المغول بقوة تلك الانقسامات الدينية والمذهبية. تآمر العديد من كبار رجالات الشيعة في بغداد، بمن فيهم مستشار الخليفة وكبير وزرائه مع المغول ضد الخليفة، حيث عملوا بصفة مخبرين وجواسيس. كما انضم الآلاف من مسيحيي بغداد إلى القوات المغولية[٢١].

بالمقابل، كان المغول أكثر انفتاحاً من الناحية الدينية من أي قوة حاكمة في العالم. فقد عمل مسلمون ومسيحيون من كل المذاهب في جيش هولاكو. وكان أحد مستشاريه عالم الفلك الفذ الشيعي ناصر الدين الطوسي. بالإضافة إلى ذلك، كانت

أم هولاكو واثنتان من زوجاته مسيحيات، وهو ما سهّل عليه التواصل مع مسيحيي الشرق الأوسط الذين اعتبروه منقذاً لهم. اتجه هولاكو نحو بغداد سنة ١٢٥٧. (كان قد غادر السهوب المغولية سنة ١٢٥٣، إلا أن رجاله احتاجوا إلى بضع سنوات للقضاء على الحشاشين الشديدي البأس، الذين ينتمون إلى مذهب إسلامي غريب، وكانوا يسيطرون على شبكة واسعة من التحصينات الجبلية الممتدة من أفغانستان إلى سورية.) في الخامس من شهر شباط، فبراير، سنة ١٢٥٨، وبعد مرور أسبوع على بدء العمليات العسكرية المتمثلة في إغراق المدينة بالمياه وقصفها بالراجمات، استطاع المغول اجتياح السور الشرقي لمدينة بغداد؛ وتم قطع رأس الخليفة بعد عدة أيام من ذلك. وبسقوطها في أيدي المغول، خضعت الخلافة العباسية ليس إلى جحافل البدو الرحل، بل انضمت إلى قائمة «الموارد البشرية والمالية والمادية والتكنولوجية التي مثلتها الصين الشمالية وآسيا الوسطى وروسيا والقوقاز وإيران» [٣٢].

استبيحت بغداد ونُهِبت؛ كانت الجثث مكدسة في الطرقات وتنبعث منها روائح نتنة. استثني من هذه العمليات الوحشية الشيعة والمسيحيون. قيل إن هولاكو حاول إرغام الخليفة على أكل قطع من الذهب الذي كان بحوزته. وعندما لم يفلح في ذلك، أمر بلف الخليفة وورثته كلّاً في سجادة وسحقهم بمدقات حتى الموت- وهي عقوبة كانت تقتصر في ما يبدو على النبلاء.

بنجاحهم في إسقاط الخلافة العباسية، حقق المغول خلال سنتين ما عجز المسيحيون الصليبيون عن تحقيقه في قرنين. احتفل المسيحيون البغداديون بانتصار المغول على طريقتهم الخاصة حيث قاموا بذبح المسلمين وتدمير المساجد. حيّا المسيحيون على امتداد رقعة الشرق الأوسط من دمشق إلى حلب التقدم المغولي بنوع من الحماسة الرؤيوية. كانوا يبتهلون إلى الرب كي يقوم المغول بتحرير بيت المقدس، وكانوا أثناء ذلك يستعدون للانتقام من مضطهديهم السابقين من المسلمين [٣٣].

لم يعرف عن المغول بالرغم من وحشيتهم، أي تعصب أو تحامل ديني. العكس

كان هو الصحيح. بالعودة إلى كاراكورم، كانت طريقة البلاط المغولي في مقاربة الأديان شبيهة إلى حد كبير بمقاربة جامعات Ivy League. بحسب رواية ويليام روبروك وهو راهب فرنسيسكاني كان في زيارة إلى كاراكورم سنة ١٢٥٤، ترأس الخان الكبير مونجك مناظرات دينية محددة كان كل مشارك فيها له نفس قوة التصويت وكان يؤمل من تلك المناظرات إيجاد قواسم مشتركة بين الأديان. كان روبروك نفسه كاثوليكياً متزمتاً، ومتعصباً حتى ضد مسيحيين من مذاهب أخرى. عندما أبلغ روبروك الخان الكبير مونجك أنه أتى إلى هذا المكان "لينشر كلمة الرب" طلب إليه مونجك المشاركة في مناظرة أمام ثلاثة من القضاة: بوذي ومسيحي ومسلم. كانت المناظرة تخضع لرقابة شديدة؛ وكان من أهم شروط المناظرة "عدم جواز قيام أحد باستخدام كلمات جدلية تثير مشاعر التعصب". يصف العالم الأنثربولوجي جاك ويذرفورد أحداث تلك المناظرة:

> في الجولة الأولى، واجه روبروك بوذياً من شمال الصين الذي بدأ بسؤاله عن كيفية صنع الكون، وماذا يحل بالروح بعد الموت. احتج روبروك على ذلك بالقول إن الراهب البوذي طرح الأسئلة بطريقة خاطئة: فالمسألة الأولى يجب أن تتمحور حول الرب الذي منه بدأ كل شيء. منح الحكام النقاط الأولى لصالح روبروك.
>
> استمر السجال بينهما جيئة وذهاباً حول موضوعات الخير مقابل الشر، وطبيعة الرب، وماذا يحل بأرواح الحيوانات، ووجود التقمص، وفيما إذا كان الرب هو من خلق الشر... بعد كل جولة من المناظرة، كان هؤلاء العلماء يتوقفون لاحتساء جرعات كبيرة من الخمر استعداداً للمباراة الآتية.
>
> وفي الوقت الذي بدأ تأثير هذه الجرعات من الخمر يتضح أكثر على المشاركين، توقف المسيحيون عن محاولة إقناع أحد بحججهم العقلية، وبدؤوا بدلاً من ذلك بالغناء. أما المسلمون الذين لم يشاركوا في الغناء، فقد بدؤوا بترتيل آيات من القرآن بصوت عالٍ في معرض محاولتهم لكبح جماح الغناء من قبل المسيحيين. أما البوذيون فقد انسحبوا من المناظرة وبدؤوا في عملية تأمل صامتة. في النهاية، ونظراً لعجزهم عن إقناع بعضهم بعضاً، وكذلك عن قتل بعضهم بعضاً، فقد اختتموا تلك المناظرة بالطريقة التي تختتم فيها معظم الاحتفالات المغولية حيث كانوا في حال من السكر الشديد الذي منعهم من الاستمرار في تلك المناظرة [٣٤].

ربما بدا ذلك النوع من المناظرات مضحكاً في القرن الحادي والعشرين، لكنها كانت لافتة إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي كان يتم التعامل فيها مع الخلافات الدينية في عالم القرن الثالث عشر «المتحضر». أصدر البابا إنوسينت الرابع بياناً بابوياً صارماً سنة ١٢٥٢ يصادق فيه على ممارسة التعذيب لاجتثاث شأفة الهراطقة. جال الرهبان الدومينيكانيون - أي كلاب الرب - الذين كانوا ينتظرون مثل هذا البيان بفارغ الصبر بين المدن الواحدة إثر الأخرى، وبدؤوا بانتزاع اعترافات من المشبوهين بأساليب وحشية. أخذ ملوك أوروبا من دعاة الصليب في طول القارة وعرضها على عاتقهم إشهار السيف في وجه المسلمين: الألسن قطعت، والرؤوس تدحرجت باسم المسيح. في فرنسا، كان لويس التاسع، وهو ممول الراهب روبروك قد تم تطويبه في مراتب القديسين لقيامه ببعض الأعمال المقدسة بما في ذلك قيامه بإحراق ١٢٠٠٠ من المخطوطات التلمودية المدونة بخط اليد. كما صب «جنود الصليب» جام غضبهم ليس فقط على المسلمين بل أيضاً على المسيحيين الأرثوذكس. في القسطنطينية، «قام الصليبيون بذبح جميع من صادفوه في طريقهم بغض النظر عن عمره وجنسه. ... أسيئت معاملة الراهبات والعذارى والأمهات وتمت استباحتهن. ... كما مورس أشد أشكال التنكيل بالرهبان الأرثوذكس» [٣٥].

أما المغول «البرابرة» فقد كانوا عالميين في انفتاحهم على الثقافات الأخرى. التقى روبروك في بلاط مونجك ليس فقط بالمفكرين الدينيين والتجار ووفود الدبلوماسيين، بل بحرفيين عاليي المهارة من سورية وروسيا وهنغاريا وألمانيا وفرنسا بمن فيهم الصائغ الفارسي الشهير غولوم باوشر. بالرغم من أن هؤلاء الفنانين كانوا من الناحية التقنية أسرى حرب، إلا أنهم عوملوا بمنتهى الاحترام. قام باوشر يعاونه فريق من خمسين من المساعدين بإعادة تزيين عاصمة المغول على النمط الأوروبي. كان المغول بالتأكيد نزقين على طريقتهم الخاصة: كان مونجك، مثل جنكيز خان يعتقد أن المغول هم شعب اختاره الله والطبيعة - اللذان كان يعنيان الشيء نفسه من وجهة نظرهم - لفتح العالم بأسره.

لم يقم المغول بالاستيلاء على القدس في نهاية المطاف. توقف الزحف المغولي غرباً سنة ١٢٦٠عند حدود فلسطين في عين جالوت (بئر جوليات) حيث تعرض جيش هولاكو إلى هزيمة على يد المماليك في مصر. قبل تلك المعركة بوقت قصير تلقى هولاكو نبأ وفاة أخيه مونجك. وكان هولاكو الذي لم تكن لديه أية طموحات كي يصبح الخان العظيم، قد أصابه حزن شديد، ربما لأنه شعر بأن وفاة شقيقه مونجك كان إيذاناً بنهاية وحدة الإمبراطورية المغولية [٣٦].

حكم المغول للصين

قبل سنوات قليلة على وفاته، أخذ مونجك على عاتقه مهمة فتح إمبراطورية سلالة سونغ الحاكمة في الصين بعد أن يئس من تباطؤ شقيقه خوبيلاي، وعدم تقدمه، والأعذار الواهية والدائمة التي يختلقها كي لا يقوم بهذه المهمة تاركاً مسؤولية إدارة شؤون الإمبراطورية لأخيه الأصغر أريك بوك في كاراكورم. في شهر أيار، مايو، سنة ١٢٥٨، قاد مونجك جيشه عبر النهر الأصفر متجهاً إلى قلب الصين الجنوبية مستخدماً الأساليب نفسها التي اتبعها جده جنكيز خان. لكن السونغيين العظام – حتى في الزمن الذي بدأت فيه إمبراطوريتهم بالتداعي كانوا أكثر الأعداء الذين كان المغول يحسبون لهم ألف حساب – قاوموا الغزو المغولي بضراوة. توفي مونجك قبل عقدين من اكتمال الحملة، ويقال إن سبب وفاته في إقليم سيشوان كان الزحار أو الكوليرا.

أدت وفاة مونجك إلى حقبة من الاضطرابات والحروب الداخلية. عقد خوبيلاي وأريك بوك سنة ١٢٦٠ كل على حدة مجلساً حربياً بطريقة فيها الكثير من الدراماتيكية؛ عقد الأول مجلسه الحربي في زانادو، أما الثاني فقد عقده في كاراكورم، ونصب كل منهما نفسه في موقع الخان العظيم. وأدى هذا الصراع بين الأخوين إلى إلحاق عطب دائم بالإمبراطورية المغولية.

ما من شك في أن خوبيلاي كان يمثل حالاً شاذة بين أشقائه. أما بقية أنسبائه

فقد بقوا متمسكين بتقاليدهم التي عاشوا عليها في السهوب. كانوا بالدرجة الأولى محاربين رُحّل، وكانوا يرون مثل جنكيز خان أن الترف الذي تتسم به الحضارة الحالية له إغراءاته المؤذية. بالمقابل، كان خوبيلاي يفضل القصور والمدن على حياة السهوب. كان يحب الاسترخاء وإقامة الولائم، وبالتالي فقد أصيب بالبدانة وداء النقرس في مراحل مبكرة من سني شبابه.

انتصر خوبيلاي على شقيقه أريك بوك في نهاية الأمر. كان انتصار الأول على الثاني يمثل جزئياً انتصار المزارع على البدوي. حدث الصراع بين الشقيقين في أسوأ وقت بالنسبة لأريك بوك، لأن منغوليا عانت من أكثر المجاعات فتكاً بسبب البرودة الشديدة التي قضت على أعداد كبيرة من قطعان الماشية في السهوب. ونظراً إلى أنه لم يتمكن من توفير الطعام لأتباعه الجياع، وجد أريك بوك نفسه تحت رحمة خوبيلاي الذي كانت المنطقة الواقعة تحت سلطته تحتوي على أراضٍ زراعية ومؤن غذائية. استسلم أريك بوك سنة ١٢٦٤ لشقيقه خوبيلاي مبرراً هزيمته ببعض العبارات المؤثرة: «كنا نحن حينئذ، واليوم هو يومك.» سامح خوبيلاي شقيقه (الذي مات مسموماً بعد سنتين)، لكنه تسبب في دمار كاراكورم لأن العاصمة الجديدة التي اختارها مقراً لحكم إمبراطوريته هي عاصمة الجورشيين السابقة زونغدو – التي استباحها جنكيز خان سنة ١٢١٤ – التي أصبح اسمها بيجين فيما بعد.

لكن واقع الحال يشير إلى أن الإمبراطورية المغولية هي الآن منقسمة على نفسها. فأفراد العائلة المالكة الذين كانوا يريدون أن يصبح أريك بوك هو الخان العظيم، رفضوا الاعتراف بشرعية خوبيلاي. في غضون ذلك، حكم هولاكو والمنحدرون من صلبه المناطق العربية والفارسية التي أطلقت عليها تسمية "إيلكاناتي" بينما سيطر المنحدرون من صلب الابن الأكبر لجنكيز خان واسمه جوشي على روسيا وشرق أوروبا؛ وهؤلاء بدورهم رفضوا الاعتراف بسلطة خوبيلاي خاناً عليهم [٢٧].

ولكن حتى من دون تلقي دعم كامل من عائلته، استطاع خوبيلاي تحقيق ما

لم يستطع جده الشهير تحقيقه: فقد فتح الصين الجنوبية وأعاد توحيد المملكة الوسطى. كان انتصار خوبيلاي على السونغيين من عدة زوايا أقل شأناً من وجهة النظر العسكرية من الانتصار الذي حققه من خلال فتح قلوب وعقول الشعب الصيني. فعلى العكس من حروب جنكيز خان الخاطفة، كانت هزيمة السونغيين على يد خوبيلاي تدريجية، وامتدت نحو أربعين سنة. خلال تلك الحقبة، كان خوبيلاي يعمل بصبر وتؤدة، ومن خلال الدعاية وإتباع السياسات العامة الحازمة من أجل إقناع الصينيين أنه هو، وليس القادة السونغيين المتعجرفين والفاسدين، من يمثل الفضائل والقيم الصينية.

مع كل نصر كان يحققه على السونغيين مهما كان صغيراً، كان خوبيلاي يسوّق لفكرة أن العناية الإلهية قد اختارته لهذا الموقع؛ وهي مهمة لم يكن من الممكن تحقيقها بسهولة بالنسبة لشخص «بربري». ولكن الفلاحين والطلاب والجنود وحتى الجنرالات كانوا ينضمون سنة إثر أخرى إلى الجانب المغولي بأعداد متزايدة. ما كان مدعاة للإعجاب أكثر من ذلك، أن المغول المشهورين بفروسيتهم انتصروا أيضاً في المعارك البحرية. استقطب خوبيلاي من جديد خبراء غير مغوليين لبناء وقيادة أسطول لجيشه. كما ضمن ولاء الأميرالات الصينيين الأقوياء الذين كانت لهم سيطرة كاملة على مياه الصين الإقليمية والممرات المائية الداخلية، مما كان له أثر حاسم في الانتصار المغولي [٣٨].

امتدت مدة حكم خوبيلاي (١٢٦٠-٩٤) مدة طويلة، وكانت تتمتع بسلام نسبي. عندما سقطت مدينة هانغزو، عاصمة السونغيين الرائعة بيد القوات المغولية أخيراً، سنة ١٢٧٦، وجد خوبيلاي نفسه مسيطراً على أعظم كنوز الصين، وأعظم المدن، وأكثر الموانئ ازدهاراً وحركة - كانت حوالي ٢٠٠٠٠٠ من المراكب التجارية تمخر عباب نهر يانغتزي لوحده سنوياً - بالإضافة إلى وضع يده على قوة بحرية هائلة ومدربة بشكل رائع. الآن، وقد استعادت الصين وحدتها، فقد أصبحت أكبر تجمع بشري في العالم يحتوي على ما بين ١١٠ إلى ١٢٠ مليون من الرعايا.

بالرغم من انقسام الإمبراطورية المغولية على نفسها، إلا أنها الآن تسيطر فعلياً على العالم المتحضر برمته. كان خوبيلاي لوحده يحكم شعباً أكثر عدداً من أي حاكم في التاريخ من قبله. اتبع خوبيلاي مزيجاً من السياسات العرقية لكي يتمكن من حكم رعاياه الصينيين الذين لم يكونوا يشكلون أعداداً هائلة وحسب، بل كانوا متفوقين ثقافياً بمراحل على المغول. من ناحية، تبنى خوبيلاي عدداً من السياسات التي تبدو بعيدة عن منطق التسامح؛ فقد كان من اللافت قيامه بمنع الزواج بين الصينيين والمغول، كما منع الصينيين من تعلم اللغة المغولية، أو حمل الأسلحة. بالإضافة إلى ذلك، قام بإلغاء نظام الامتحان الكونفوشيوسي كآلية لتدريب البيروقراطيين الصينيين، كما رفض بشكل عام تعيين الصينيين في أعلى المناصب الحكومية في الدولة. (لم تكن هذه سياسة مغولية مطبقة في جميع مناطق الإمبراطورية المغولية؛ ففي بلاد فارس على سبيل المثال، كان من المسموح للفرس تبوء مثل هذه المناصب الرفيعة.)

ظهرت نظريات مختلفة تشرح الأسباب التي حدت بالخان خوبيلاي لاتباع مثل هذه السياسات الإقصائية. قد يذهب الظن بالبعض إلى اعتباره مغولياً متعالياً ومعادياً للصينيين. لكن مثل هذا الافتراض هو أبعد ما يكون عن الحقيقة. فبحكم أنه قضى معظم حياته في المملكة الوسطى، كان خوبيلاي من أشد المعجبين برقي الثقافة الصينية، وبجمالية الفن المعماري الصيني، ونظام المجتمع الصيني. وبعكس ممارسات أسلافه الوحشية في الصين الشمالية، فإن خوبيلاي لم يقم بتدمير أي شيء تقريباً في الصين الجنوبية. على العكس من ذلك تماماً، فإن التاريخ يسجل له إصدار الأوامر بإصلاح المعابد والأماكن المقدسة والمباني العامة الأخرى التي تهدمت أو تعرضت لضرر كبير خلال الحرب. كما أحاط نفسه بالمستشارين الصينيين، وتميز حكمه بالاعتدال والتنوّر. كانت مقاربة خوبيلاي المتعاطفة مع الصين قد أغضبت الكثير من أقاربه الأكثر التزاماً بالعادات والتقاليد، والذين أرادوا -ببساطة- تخريب الصين واستغلالها وذلك انسجاماً مع الممارسات المغولية السابقة.

بالإضافة إلى ما تقدم، أظهر خوبيلاي ما يمكن وصفه بالنموذج المثالي للتسامح العرقي. فهو لم يمتنع عن فرض العادات المغولية على رعاياه الصينيين وحسب، بل تبنى، على الأقل ظاهرياً، الثقافة الصينية بشكل شخصي، وفي بلاطه، ومع الطبقة الحاكمة أيضاً. تبنى لقباً صينياً ومنح أسلافه بعد موتهم أسماء صينية. قام ببناء عاصمة صينية على الطراز المعماري الصيني القديم، ومارس الطقوس الإمبراطورية الصينية، كما قام بتأسيس سلالة صينية حاكمة تعرف إلى اليوم باسم "اليان" وتعني بالصينية "الأصل" أو "البدايات العظيمة". كما قام بشغف بتسويق الفن والموسيقى والدراما الصينية، ووضع الأساس لما أصبح يعرف فيما بعد بأوبرا بكين. بالرغم من أنه بقي في أغلب الظن أمياً، فقد سمح خوبيلاي للأدب والفكر الصينيّن بالازدهار من خلال بناء المدارس، وإعادة تأهيل أكاديمية "هانلين" التي كانت مخصصة لأهم المفكرين والباحثين في المملكة الوسطى. استناداً إلى ما ذكره المؤرخ ديفيد مورغان، «كان الأدباء يتمتعون بحرية أكبر بكثير (تحت سلطة المغول) مما كانوا ينعمون به في ظل سلطة السلالات الحاكمة «الأكثر احتراماً» [٣٩].

وكان من المثير للاهتمام أن خوبيلاي الذي قام بإقصاء الصينيين عن الوظائف الحكومية العليا في الإمبراطورية، لم يعين بدلاً منهم موظفين مغول؛ بل قام على نطاق واسع بتعيين موظفين أجانب من غير الصينيين. أقر خوبيلاي بأن المغول أنفسهم كانت تعوزهم الخبرة والعدد الضروريان لحكم مجتمع معقد مثل المجتمع الصيني، ولذلك فقد استقر رأيه على استقطاب أصحاب مواهب وخبرات من الإيغوريين والخيطانيين والفرس وكذلك من آسيا الوسطى، والأوروبيين وقام بتعيينهم حكاماً للأقاليم، ووزراء كبار. وهكذا فقد عين شخصاً من طشقند في منصب وزير مالية خوبيلاي (وكان فاسداً جداً)، وبقي في هذا المنصب مدة عشرين سنة؛ كما استلم شخص مسلم، وابنه من بعده منصب حاكم إقليم "يونان". ويبدو أن ماركو باولو نفسه قد استلم منصباً حكومياً في مدينة يانغزو بالقرب من مدينة نانجينغ. تباهى باولو فيما بعد أمام أقرانه من أهل البندقية أنه كان حاكماً لمدينة يانغزو؛ إلا أن ذلك

لم يكن صحيحاً. أغلب الظن أن وظيفته كانت المساعدة في إدارة احتكار الحكومة لتجارة الملح – وهي وظيفة لا تتمتع بنفس الدرجة من الأهمية.

استمر الصينيون في شغل وظائف حكومية أدنى مرتبة من مناصب الدولة العليا التي كانت في مجملها حكراً على الأجانب. أبقى خوبيلاي في واقع الأمر على أعداد كبيرة من عناصر الجهاز البيروقراطي الصيني الشديد الانضباط والتأثير في الوقت الذي كان ينشئ مكاتب جديدة لمعالجة المشكلات التي تثير قلقاً عند المغول بشكل خاص، ومن هذه المكاتب على سبيل المثال، قسم يعنى باستعادة الحيوانات المسروقة. كان خوبيلاي يعين في كل واحد من هذه الأقسام خليطاً من الموظفين الصينيين وغير الصينيين: وكان يشغل كل واحد من تلك المكاتب موظفون تتحدد أعدادهم بموجب المحاصصة العرقية التي تحدد العدد المطلوب من الصينيين الشماليين، والصينيين الجنوبيين، والبيروقراطيين الأجانب. قام خوبيلاي في بعض الحالات بتعيين اثنين من الموظفين – أحدهما صيني والآخر أجنبي – في الموقع الحكومي المهم نفسه طالباً منهما أن يمارسا الوظيفة سوياً.

باختصار، كانت مقاربة خوبيلاي للحكم تعكس شكلاً من أشكال العالمية تجاوزت بكثير موضوع التسامح. (كان يرسل وفوداً باستمرار إلى البابا وإلى حكام أوروبا يدعوهم لإرسال أفضل باحثيهم ومفكريهم للعمل لديه إلا أنهم رفضوا مثل هذه الدعوات.) ومن ثم، يمكن تفهم السبب الذي حدا به إلى سن قوانين تمنع الصينيين من الزواج من المغول، أو تعلم اللغة المغولية، أو تبوء مناصب حكومية رفيعة من زاوية مختلفة. فالدافع لسن تلك القوانين لم يكن مبعثه أي اعتبارات شوفينية، بل ربما اعتبارات سياسية كان القصد منها حماية الأعداد القليلة من المغول الحاكمين من خطر ابتلاعهم أو الإطاحة بهم من قبل الأعداد الكبيرة من السكان الصينيين. وربما كانت هذه الاعتبارات تتعلق بإستراتيجية أشمل، سهّلت على خوبيلاي كثيراً وضع المجموعات العرقية المختلفة في مواجهة بعضها بعضاً، كما يشير بعض المؤرخين.

على أي حال، كانت نتائج السياسات التي انتهجها خوبيلاي لوحة مزركشة من الثقافات والأعراق والأديان المختلفة. استمرت العائلة المالكة المغولية داخل جدران القصر الإمبراطوري في النهج الحياتي المغولي التقليدي نفسه الذي يشمل التحدث باللغة المغولية، ويأكل أفرادها ويشربون على الطريقة المغولية، وينامون في خيام من اللباد على أرضية القصر. أما خارج القصر، أي في العاصمة – التي كانت تعرف عند الصينيين باسم "دادو" أو «العاصمة العظيمة»، أو "خان باليك" أي «مدينة الخان» كما كان يطلق عليها الأوروبيون – فقد كان المكان يعج بالعرب والأرمن والتانغوتيين والأتراك والتيبيتيين والفرس ومن آسيا الوسطى والأوروبيين. أما المقيمون فيها بشكل مؤقت من مختلف أصقاع العالم، فقد كانوا يعملون في كافة المجالات التي يمكن للمرء أن يتخيلها: وهذه المجالات هي بائعو الصقور والأطباء وبائعات الهوى والطباخون ومهندسو الهيدروليك وعلماء الفلك والنحاتون وحراس البوابات والناسخون والمترجمون والمستشارون الروحيون والتجار والباعة.

عملياً، كانت كل أديان العالم ممثلة في تلك المدينة. ففي شوارع دادو المزدحمة، كان الحاخامات وحكماء الهنود يختلطون بأعداد أكبر من نظرائهم البوذيين والمسلمين والنيسطوريين والكاثوليك. وبالرغم من أن خوبيلاي نفسه كان أكثر ميلاً نحو البوذية، إلاّ أن الكثير من أفراد العائلة المالكة كانوا من المسيحيين المؤمنين، في الوقت الذي كان بعض المغول في الصين ما زالوا يعتنقون الديانة الشامانية. في غضون ذلك، كان بعضٌ من أكثر مستشاري المغول احتراماً، من أتباع الديانتين التاوية والكونفوشيوسية [٤٠].

ومع أن الطبقة العليا التي تربّتْ على الطريقة الكونفوشيوسية في الصين الجنوبية كانت تنظر إلى الحكم البربري باعتباره بغيضاً ومهيناً، إلا أن المغول، والحق يقال، جلبوا إلى الصين السلام والوحدة السياسية لم تعهدهما منذ أن أطيح بالتانغيين سنة ٩٠٧. تحولت مدن المرافئ الصينية إلى مراكز رئيسة للاستيراد والتصدير حيث تخصصت مدينة هانغزو في تجارة السكر، ومدينة يانغزو في تجارة

الأرز؛ أما مدينة زيتون (التي تدعى كوانزو هذه الأيام) فقد تخصصت في تجارة اللآلئ والأحجار الكريمة.

كانت القناة الكبرى التي شقها المغول تمتد إلى مسافة ١١٠٠ ميل من هانغزو إلى بيجين الحديثة، وكانت تصل من الناحية الاقتصادية بين شمال الصين وجنوبها. وكانت المراكب التجارية الصينية تبحر غالباً باتجاه فيتنام وماليزيا وجاوا وسيلان وجنوب الهند، وتقفل عائدة وعلى متنها كميات كبيرة من السكر والعاج والقرفة والقطن. وازدهرت التجارة العالمية البرية والبحرية بين الصين وبلاد فارس التي يسيطر عليها المغول وآسيا الوسطى وأوروبا بشكل لم يسبق له مثيل. وكان التجار من كل الأديان والأعراق يجنون ثروات طائلة إبّان الحكم المغولي [٤١].

في غضون ذلك، لم يشعر فلاحو الصين الذين يشكلون غالبية السكان إلا بتغيرات بسيطة على أنماط حياتهم اليومية. فقد كانوا يدفعون الضرائب لعائلة إمبراطورية مختلفة، وبقوا يئنون تحت وطأة استغلال أصحاب الأراضي لهم. (أبقى خوبيلاي على أملاك كبار إقطاعيي الصين الجنوبية على حالها كي يضمن ولاء هؤلاء له.) من ناحية أخرى، إذا كان لنا أن نصدق ما هو مدون في السجلات الإمبراطورية، فقد أنشأ خوبيلاي ٢١٠٠٠ مدرسة حكومية ذات مناهج تركز على التعليم العالمي. بالإضافة إلى ذلك، استفاد الفلاحون من إصلاح خوبيلاي للقانون الجزائي الذي كان شديد القسوة في عهد السونغيين. فقد منح خوبيلاي العفو لمرتكبي الجرائم البسيطة الذي أظهروا الندم على ما ارتكبوه، وفي بعض الحالات، أبدل العقوبات الجسدية بغرامات مادية. وفي الوقت الذي كان نظراؤه من الأوروبيين ينزلون عقوبات بعدد متزايد من الناس عن طريق تمزيق أجسادهم بواسطة المِخلعة، أو تحطيمها بواسطة دواليب ضخمة، كان خوبيلاي يعارض ممارسة التعذيب. كما أنه لم يكن من أنصار عقوبة الإعدام؛ فقد انخفضت معدلات أحكام الإعدام في عهده بشكل دراماتيكي، وبمعدلات سنوية أقل بكثير مما هي عليه الحال الآن في الصين الحديثة أو الولايات المتحدة [٤٢].

يرى بعض الناس أن القرون التي كان العالم فيها تحت السيطرة المغولية، شهدت الموجة العظيمة الأولى للعولمة. فتحت الحكم المغولي، تم الربط بين أوروبا والشرق الأقصى للمرة الأولى بواسطة الطرق التجارية، وأيضاً بواسطة ما كان يعرف ب"اليام": وهي عبارة عن شبكة من محطات الإبدال التتابعي التي كانت تبعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثين ميلاً، وكانت هذه الشبكة تغطي الإمبراطورية من أقصاها إلى أدناها. وبحسب رواية ماركو باولو، كانت الرسائل العاجلة تنتقل بواسطة نظام السعاة هذا مسافة ثلاثمئة ميل يومياً. كان نظام اليام أيضا مفيداً للتجار الدوليين لأنه كان يوفر لهم أماكن للراحة والنوم - وأحياناً ملاءات الحرير - والطعام وخيول إضافية والعلف وحتى مرشدين للطرق.

كتب ويذرفورد أن المغول كانوا «حاملي الحضارة الثقافية من دون منازع». فقد بنوا الكنائس في الصين، والمدارس الإسلامية في روسيا، والقباب البوذية في بلاد فارس. «ونظراً إلى أنه لم يكن لديهم نظام خاص بهم كي يفرضوه على رعاياهم، فقد كانوا على استعداد لتبني نظم مختلفة من كل مكان ودمجها.» أحضر المغول أنواعاً جديدة من بذور الأرز والشعير والحبوب الأخرى من الصين إلى بلاد فارس، في الوقت الذي كانوا ينقلون أنواعاً جديدة من أشجار الليمون والحمضيات في الاتجاه الآخر. انتشرت في العالم الواقع تحت سيطرة المغول «أنواع عديدة من حبوب البازيلاء والفاصولياء والعدس والعنب والجوز والجزر واللفت والبطيخ وأنواع لا حصر لها من الخضراوات ذات الأوراق» مثلما انتشرت أنواع جديدة من الأصباغ والزيوت والتوابل والنماذج المعمارية ووسائل الطباعة والأقمشة مثل الساتان والموسلين والحرير الدمشقي. وكان الجراحون المسلمون الذين قيل إنهم كانوا الأفضل في عصرهم يجرون عمليات جراحية الآن في الصين، بينما كان الأطباء الصينيون المتخصصون في الأمراض الداخلية وعلم الصيدلة يعالجون الأمراض في آسيا الوسطى وبلاد الرافدين. تم إرسال الروس إلى شمال الصين، والتجار من جنوى إلى منطقة البحر الأسود، والتجار الصينيين إلى جنوب شرق آسيا حيث بنوا هناك شبكات تجارية واسعة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا. ومن علماء الرياضيات

العرب، مروراً بالسجاد الطاجيكي، وانتهاء بالمعالجين بواسطة الإبر الصينية، كان المغول «يبحثون دائماً عما هو أفضل، وعندما يجدونه، كانوا يقومون بنشره في البلدان الأخرى» [٤٣].

توفي خوبيلاي الذي كان آخر ملوك المغول العظام، بهدوء سنة ١٢٩٤ بعد حكم امتد طيلة أربع وثلاثين سنة. كان مختلفاً في كثير من الأوجه عن جنكيز خان. فقد كانت تعوزه حنكة جده ونزوعه نحو التوسع العسكري. كان أيضاً أكثر إنسانية منه. لم يقم خوبيلاي بارتكاب أي مجازر وحشية حتى في الحملات التي قادها هو بنفسه كتلك التي طبعت عهود أسلافه وجعلت من أسمائهم مثار رعب. إلا أنه درج على نهج جده من حيث ابتعاده عن الشوفينية الدينية أو العرقية. لم تكن لديه مشكلة في التعبير الحر عن إعجابه بالمعارف والإبداعات والإنجازات الثقافية لرعاياه من الشعوب المختلفة، بل والاقتباس منها. سمح لكل المعتقدات بأن تنمو وتزدهر، كما أنه تعامل مع الحضارة الصينية كما لو كانت جوهرة، بالرغم من أنه قام بتطعيمها بالمعرفة والتكنولوجيا الهندية والإسلامية.

ربما كان خوبيلاي عولمياً يناضل من أجل إنشاء نظام موحد للعالم، بخلاف جده الذي كان في أعماقه بدوياً من السهوب. وبفضل جمعه للخبرات العربية والصينية والإغريقية، استطاع المسّاحون وعلماء الفلك العاملون بإمرة خوبيلاي إنتاج أكثر أنواع الخرائط والرسوم البيانية البحرية والخرائط البرية للعالم تطوراً، متجاوزين في ذلك بأشواط بعيدة، أقرانهم الأوروبيين. قدم الكثير من الدعم للتجارة العالمية، وأيد مبدأ التعايش الديني، والتواصل الحر والتبادل الثقافي. ومن اللافت للنظر والمناسب في آن التذكير بأن أكثر الطموحات التي كانت تشغل بشغف بال خوبيلاي تمثلت في الرغبة في ابتكار أبجدية عالمية، تضم كل لغات الأرض، بالإضافة إلى تقويم عالمي يوحد بين التقويم القمري عند العرب، وبين التقويم الشمسي عند الأوروبيين، وبين دورة الإثنتي عشرة سنة الحيوانية عند الصينيين [٤٤].

التعصب والانحطاط

كما هي الحال دائماً في كل إمبراطورية، تسببت مجموعة من العوامل في انهيار الإمبراطورية المغولية العظمى؛ وكان من بين هذه العوامل عدم كفاءة قادتها، والفساد، والثورات، والانحطاط، والصراعات الفئوية، والاغتيالات، والهجمات الخارجية، وسوء الطالع. وصل الحكم المغولي في الصين إلى نهايته سنة ١٣٦٨، عندما أرغم حكام المينغ الجدد - يتباهون بانتمائهم الصيني العرقي - خصومهم المنحدرين من سلالة جنكيز خان على الفرار عائدين إلى السهوب. وكان الحكم المغولي في الإقليم الخاناتي الفارسي الذي كان يعاني من فوضى عارمة، قد انهار قبل ثلاثة عقود على ذلك. بالمقابل، قام المغول الذين كانوا يسيطرون على منطقة آسيا الوسطى بسلسلة من الفتوحات الدموية الجديدة في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر، واستطاعوا في النهاية تأسيس الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند إلى حين وقوعها في قبضة البريطانيين الذين استولوا عليها سنة ١٨٥٧. في غضون ذلك، كان المغول الذين يحكمون روسيا، والذين كان يطلق عليهم اسم "القبائل الذهبية" قد بدؤوا يفقدون - بشكل تدريجي - سلطتهم في الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم، وبدأ الانقسام يدب بينهم على امتداد أربعة قرون فتحولوا إلى جماعات صغيرة أقل عدداً.

إلا أن الانحطاط الذي دب في جسم الإمبراطورية المغولية في كافة أنحائها كان يتسم بقاسم مشترك واحد: ألا وهو التحول الفاضح للمغول نحو التعصب، خصوصاً في إطاره الديني على الصعيدين الرسمي والشعبي. تحالف حكام المغول في القرن الرابع عشر مع أكثر الفئات الدينية نفوذاً في إمبراطوريتهم وذلك لجملة من الأسباب المختلفة، كان من بين أهمها السبب غير المعلن والمتمثل بانتشار وباء الطاعون الدّبلي الذي أزهق أرواح خمس وسبعين مليوناً من البشر، وتسبب في وقف التجارة الدولية، ومنع فعلياً كل سبل الاتصال بين الخانات المغول الأربعة. وكان التخلي عن مبدأ حرية العقيدة الدينية الذي أسس له جنكيز خان قد أدى بهم إلى

ولوج طريق التعصب الأعمى، وتحميل الآخرين تبعة ما تعاني منه الإمبراطورية، وفي بعض الحالات، إلى القتل الجماعي.

تفاوتت تفاصيل ممارسات التعصب تلك داخل كل واحدة من أجزاء تلك الإمبراطورية. فقد كان مغول روسيا أول من أشهروا إسلامهم بين المغول. تحالفوا بعدها مباشرة مع المماليك الذين كانوا يحكمون مصر في حربهم المقدسة ضد العالم المسيحي؛ وقاموا في بعض الحالات بمهاجمة أقرانهم المغول في بلاد فارس الذين كانوا بدورهم يمارسون التنكيل برعاياهم المسلمين ثُمَّ، وفي سنة ١٢٩٥، أشهر الخان المغولي غازان الذي كان حاكماً لبلاد فارس إسلامه، تماشياً مع رعاياه الفرس الذين كان يدين معظمهم بالإسلام. لسوء الحظ، كان أحد أكثر مستشاري الخان غازان تأثيراً هو الجنرال نيروز المسلم، المعروف بتعصبه وكراهيته.

قام نيروز بتطهير الإقليم الخاناتي من البوذية، وتدمير معابدها وتماثيلها، مجبراً معتنقيها - الذين كانوا يشكلون أقلية مغولية بشكل خاص - على إشهار إسلامهم. لقد وجهت الأوامر إلى المسيحيين واليهود كي يرتدوا ألبسة خاصة مميزة كي يكون باستطاعة العصابات الإسلامية التحرش بهم والاعتداء عليهم. اندلعت أعمال الشغب الدينية؛ حيث دمرت الكنائس وألقى القبض على المسيحيين الذين اعتقلوا وضربوا أو قتلوا. لم يسلم حتى أتباع الديانة الشامانية التي كانت الديانة الأصلية للمغول، من الاضطهاد والقمع. فقد نيروز في النهاية حظوته عند غازان الذي أمر بقطع نيروز إلى نصفين. لكن المغول في إيران استمروا في حكم تلك المنطقة باسم الإسلام، واستمر النزاع الديني في هز أركان الإقليم الخاناتي إلى أن انهار سنة ١٣٣٥ [٤٥].

أما في الصين، فقد وصل المنحدرون من سلالة خوبيلاي خان الذين كان يحيط بهم سخط شعبي من كل حدب وصوب، إلى استنتاج مفاده أنهم أضعفوا أنفسهم بسبب أنهم أصبحوا «صينيين أكثر مما ينبغي». كان أعضاء البلاط الإمبراطوري

يستذكرون أحلاماً كان يحثهم فيها جنكيز خان على ممارسة حكمهم للصينيين بصورة أكثر قسوة. ولكن، بغض النظر عن الأسباب التي حدت بهم للقيام بذلك، بدأ الأباطرة اليوانيون يضعون حواجز بشكل متزايد بينهم وبين رعاياهم الصينيين، من خلال عزل أنفسهم، والتأكيد على هويتهم المغولية، ورفض استعمال اللغة والثقافة الصينية. تم منع الحكايات التقليدية والأوبرا الصينية التي قدم خوبيلاي لها الدعم الكبير فيما مضى. وكما كانت الحال في بقية الخانات، تخلى الحكام المغوليون عن حيادية أسلافهم الدينية. أما في الصين، فقد كانت البوذية بصوفيتها التيبيتية، وإطارها التانتري، الديانة التي ارتقت فوق جميع الديانات الأخرى.

تميزت العقود الأخيرة من الحكم المغولي للصين بالضّعة والفوضى. بدأت الإشاعات تعم البلاد بأسرها بأن الحكام المغوليين يخططون من خلف أسوار قصورهم لإبادة الأطفال الصينيين، وينغمسون في طقوس جنسية شاذة. كانت الإشاعة الأخيرة صحيحة جزئياً. فبناء على إلحاح من رجال الدين التيبيتيين، قامت العائلة الحاكمة المغولية بممارسة أنواع جنسية ماجنة من الرقص، كان من المفترض أن تكون جزءاً من الطريق باتجاه التنوير التانتري. تصاعد الشعور بالعصابية ورهاب الأجانب خارج أسوار المدينة المحرمة. وكان من بين الأجانب الذين كانوا يحظون بنفوذ كبير، الرهبان التيبيتيون الذين كانوا يتمتعون بامتيازات إمبراطورية كبيرة؛ وقد أصبحوا محط كراهية السكان المحليين. سنة ١٣٣٣، ارتقى طوغون تيمور – وكان فتى لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره – عرش المغول. في الوقت نفسه، ضرب الطاعون الدّبلي الصين مخلفاً وراءه تسعين في المئة من سكان إقليم هيبي في عداد الموتى. بحلول سنة ١٣٥١، مات أكثر من ثلثي الشعب الصيني الإجمالي بسبب الطاعون. في غضون ذلك، توقفت الأعمال التجارية بشكل كلي، وضرب التضخم اقتصاد الإمبراطورية، واشتعلت ثورات الفلاحين في كل مكان.

بحسب رواية بايان، وهو أحد وزراء طوغون تيمور، كان أساس كل تلك المشكلات المبالغة في عملية "التصيّن". اقترح حلاً لتلك المشكلة يتضمن إعدام كل الصينيين في كافة أنحاء الإمبراطورية الذين تنتهي أسماء عائلاتهم ب: تشانغ، ووانغ، وليو،

ولي، وتشاو. لوقيضٍ لهذه الخطة أن توضع موضع التطبيق، لكان تسعون في المئة من الشعب الصيني قد أعدموا؛ لكنها لم تطبق أبداً، إلا أنها تمثل المزاج العام المليء بالتعصب، والذي طبع آخر سني سلالة يوان الحاكمة.

كان طوغون تيمور آخر أباطرة الصين اليوانيين. اندلعت الانتفاضات المعادية للمغول في جميع أنحاء الصين الجنوبية، وبرز اسم أحد قادة التمرد الصينيين وهو زو يوانزانغ المفعم بالحيوية، والذي زعم أنه مفوض من قبل الإله للقيام بالثورة. بعد أن نجحت قواته في طرد جيش طوغون تيمور المغولي من الأراضي الصينية، أسس زو يوانزانغ سلالة مينغ الحاكمة.

غاصت الصين على امتداد القرون الثلاثة اللاحقة، في أعماق سياسة انعزالية فرضتها على نفسها. وعندما اتضح لأباطرة المينغيين أنه ليس بإمكانهم إخضاع «البرابرة» المحيطين بهم، قاموا ببناء أسوار هائلة عزلوا الشعب الصيني داخلها عن العالم الخارجي. قاموا بطرد التجار الأجانب، ومنعوا سفر الصينيين إلى الخارج، كما شنوا حملة شعواء ضد كل العادات والديانات والأفكار غير الصينية. منعت اللغات الأجنبية من التداول، وأعيد الاعتبار للكونفوشيوسية والتاوية كديانتيْن رسميتين للبلاد. وكان على الصين الانتظار حتى بداية القرن الحادي والعشرين كي تعود من جديد إلى الانفتاح، والعالمية، ومد اليد إلى العالم، كما كانت عليه الحال إبان العصر المغولي[٤٦].

كانت عبقرية جنكيز خان هي التي أنشأت شعباً موحداً انبثق من بين قبائل متحاربة في السهوب المغولية. نجح جنكيز خان، بعكس الفرس الأخمينديين، في التأسيس لهوية سياسية جديدة - الأمة المغولية العظمى، أو «شعب الجدران المصنوعة من اللباد» - لكن هذه الهوية لم تتضمن إلا الشعوب البدوية في السهوب. لم يكن الهدف منها بأي حال من الأحوال أن تتضمن، أو تجذب الشعوب غير المغولية التي كانت تنظر إلى فاتحيها المغول على أنهم أشرس أنواع البرابرة.

وبينما كان المنحدرون من صلب جنكيز خان يمعنون في ضم قطاعات هائلة من

أراضي بلاد فارس والصين والهند، وروسيا، وشرق أوروبا، في حين أن شعوب هذه البلدان لم تَعُد أنفسها مغولية، أو جزءاً من «شعب الجدران المصنوعة من اللباد»، أو رعايا يفتخرون بأنهم جزء من الإمبراطورية المغولية العظمى، لا من قريب ولا من بعيد. ما حدث، كان عكس ذلك تماماً، وكان في غاية الروعة.

فبدلاً من أن يفرضوا هويتهم على إمبراطوريتهم ذات الحجم الهائل، قام الحكام المغول بشكل تدريجي بتبني ثقافات رعاياهم الأكثر «تمدناً ورقياً». ففي الصين، تبنى خوبيلاي خان لقباً صينياً، وأسس لسلالة حكم صينية، كما أحاط نفسه بالفن والموسيقى والدراما الصينية. وفي آسيا الوسطى، اعتنق الخانات المغول الإسلام وجعلوا من الفارسية لغتهم الرسمية. ولكن لم يتم استعمال أي نوع من أنواع «الغراء» لجمع هذه الممالك التي بدأت تتباعد عن بعضها بعضاً بالتدريج. خلال مدة قصيرة، انقسمت هذه الإمبراطورية المغولية التي كانت - يوماً ما- تسيطر على العالم، إلى أربع قطع كبيرة؛ غاصت كل واحدة منها في خضم التعصب، وخصوصاً التعصب الديني. ولم تمضِ سوى مدة قصيرة، حتى انهارت هذه الإمبراطورية المغولية العظمى